

صُورَة أدبيّة للمَدِينَةِ المنوّرة في القرنِ الرّابع عشر الهجريّ

تأليف

د. عاصم حمدان علي حمدان

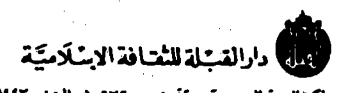
تقديم الأستاذ

الدكتور غازي عبيد مدني

دار القبلة للثقافة الإسلاميّة

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



دار القبلة للثقافة الإسلامية

المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٢٢ - الرمز: ٢١٤٤٣ - ت: ٦٦٥٢٤٠٦٠ / ٦٦٥٩٩٥١ / فاكس: ٦٦٥٩٤٧٦٠

طبعت بمطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر

ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ - ت ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية


حارة الأغوات



تقديـــم

بقلم الأستاذ الدكتور غازي عبيد مدني(*)

المـدينة المنورة ، طيبة ، المسكينة ، و . . . . ، تعددت وكثرت مسمياتها . وقد درج العرب على الإكثار من الأسماء لمن أو لما يُعظّمون .

المدينة المنورة ضاربة في أعماق التاريخ ، تكاد حجارتها أن تنطق فتروي المجهـول من التـاريخ ، وتصحح المغلوط منه . تاريخها هو التاريخ نفسه من قبل العرب العاربة وأيامهم وبعدهم .

المدينة المنورة زهت على جميع مدن الأرض ، واكتسبت تقديساً وشرفاً وفخراً بهجرة رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وإقـامتـه ومن ثم مثـواه . هاتـه الخصيصـة أكسبتها منزلة في قلوب المسلمين ستظل تعيش ما ظل المسلمون يَعْمُرون الأرض .

المدينة المنورة تهفو قلوب المسلمين إليها دائماً وأبداً ، فما بالنا بمن يسعده الحظ بالعيش على أرضها ، يتَنَسَّمُ هواءها يتغذى دمه وعظمه من مُنْتَجِ أرضها ولا غرابة أن نجد الدكتور عاصم حمدان ، وقد فتح عينيه على خُلُقِ وأدب طيبة الطيبة أن تظل في خاطره لا ينساها بل يقول لنا أن لن ينساها .

(*) وكيل جامعة الملك عبد العزيز ـ سابقاً ـ ورئيس مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي .

لماذا حارة الأغــوات ؟!

المـدينة ، أي مدينة ، في الفكر الإسلامي وتبعاً لما يهدف إليه الإسلام ذات صورة واضحة ومميزة . الصلاة هي المحور الذي يدور حولـه كل شيء ، والصلاة تقام في المسجد ، فالمسجد ، بذلك هو مركـز المـدينـة . كل شيء يلتف حولـه ، وكل الطرق تؤدي إليه . وطيبة ، المدينة المنورة تجسيد للفهم الإسلامي في هندسة المدن ، وفي جعل الناس يتمحورون حول مركز واحد يجمعهم كل يوم وليلة .

الحرم الشريف يخدمه فئة من الناس نذروا أنفسهم ، ومنذ نعومة أظافرهم نذرهم آباؤهم وما انفكوا كذلك إلى عهد قريب يطلق عليهم مُسمًّى الأغـوات . وهم ولـوقوفهم على خدمة الحرم الشريف تكون سكناهم حوله وبالقرب منه . فلا يصبح ولا يمسي أحد يسعى إلى الحرم إلا ماراً بديارهم أو بالقرب منها . فسميت المنطقة بكاملها التي تجاور الحرم الشريف بمنطقة الأغوات تكريماً لهم .

كل من عاش في المدينة تنسم عبير حارة الأغوات . فهو لا بد وأن يعود إلى بيته وفي الحالتين يمر بأروقة منطقة الأغوات . من سكن ومن زار المدينة المنورة تظل صورة تلكم المنطقة في مشاعره لا ينساها ولا يريدُ أن ينساها .

أبناء المدينة المنورة ، وخاصة في المرحلتين المتوسطة والثانوية ، كما نشـأ الـدكتور عاصم حمدان كانوا يداومون على ارتياد المسجد ليس للصلاة فقط بل للاستذكار ورؤية بعضهم بعضاً بل وأحياناً مراجعة أساتذتهم .

* * *

تاريخ أم ذكريـــات :

الصورة هي الحقيقة ، وهي لا تعرف الكذب لأنها تعكس المُصَوَّرْ إنساناً أو حيواناً ، أو جماداً . فالصورة تعرفنا بذلك الشيء المصور ، وإذا كانت صادقة فإنها ترينا الحقيقة وكأنها ماثلة أمامنا . هذا العمل الذي يقدمه الدكتور عاصم حمدان يقدم صورة تنقل مشاعر القارىء إلى روعة الماضي .

الصـورة يمكن أن تكون تاريخاً إذا صَوَّرتْ حدثاً أو أحداثاً مع متابعة تسلسل ذلك الحدث ؛ ويمكن أن تكون محاولة لفهم دوافع وفلسفة ذلك الحدث . في كل من الحالتين تصبح الصورة تاريخاً . ولن يغيب عن فطنة القارىء أن الدكتور عاصم حمدان لا يؤرخ للمدينة أو لحارة الأغوات .

الصـورة التي يقـدمها الكاتب ، أيضاً ، ليست ترجمة لأفراد أو عائلات وقد أحسن صنعاً في تجنب هذا الخضم . ولا شك أن هناك عوائل وأفراد لم يأت على ذكرهم ، ولا أخال هؤلاء يفهمون أن هذا إهمالٌ من الكاتب أو إقلالٌ من شأنهم ، لأن الكاتب ، وببساطة لم يهدف إلى التاريخ .

الصورة التي أمامنا تعكس ذكريات وهي بذلك يحكمها ويحدد إطارها وتفاصيلها ثلاثة عوامل : عامل زمني ، وعامل مكاني ، وعامل ثقافي . العامل الزمني تحدده الفترة التي بدأ الكاتب يفتح عينيه فيها على الحياة ، فانطبعت في ذهنه ذكريات رسخت في أعماقه ، وتأثرت بها شخصيته . أما العامل المكاني فإن إطاره منطقة واحدة هي حارة الأغوات ، بل بعض من الحارة ، العامل الثقافي تحكمهُ النشأة الدينية

والخُلُقِية التي نشأ عليها الكاتب وأثرت في نظرته للحياة وللناس .

هذه العوامل الثلاثة تظهر بجلاء في هذه الصور الأدبية مكونة في مجموعها لوحة فنية اجتماعية ترسم ذكرى حارة الأغوات . الكاتب ينتقل بك من مخبز « عم حجازي » وفرن « وحيدة » (وحيدة سيدة هاجرت من صعيد مصر وافتتحت مخبزاً ، وكانت تقف بنفسها تخبز عيش الحب . وكان لها ولد وبنت . توفيت البنت وهي لما تبلغ الشباب بعد ، وكان لوفاتها رنة حزن في جميع أنحاء الحارة » . . . إلى صديقه الذي كان مثلاً للخلق والدين ، الدنيا لديه لا تساوي شَرْوَى نَقِير ، يود كثير من الناس لو يكونون أصدقاءَ له . ثم ينتقل بك إلى المؤذن وهو يرفع صوته الجميل بالأذان إلى الصلاة والناس في خشوع تعرج أفكارهم ملكوت السموات والأرض . حقاً الله أكبر ولا إله إلا الله .

جميع الصور في اللوحة يُلْبِسُها الكاتب ثوباً رقيقاً من الدَّعة والسكينة ، كأن كل شيء من تلك الحارة وقد تَهَذَّبَ شكلاً وضميراً . ولم لا ؟! إنَّه بقرب مَثوَى ذي الخلق العظيم الهادي البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

أرجو أن يجد القارىء مُتعة في استعراض هذه الصور الأدبية ، فسوف يعيش فيها كما لو كان آتياً أو رائحاً في دروب حارة الأغوات .

وأخيراً أشكر الصديق الزميل الدكتور عاصم حمدان الذي أوْلاَني ثقته في كتابة هذه المقدمة وأرجو أن أكون قد أديت جُزءاً مِمَّا كان يأمل .

وبالله التوفيق

غازي عبيد مدني

٢٠ / ١١ / ١٤١٢ هـ

تمهيـــد

لم يكن هذا العمـل الأدبي المتـواضـع والـذي استقر بين يدي القارىء على هذا الشكل ، وليد عوامل طارئة دفعت بي إلى كتابته ، ولكنه يبرز بعض تلك الصور التي اختزنتها الذاكرة منذ عهد الطفولة ويفاعة الشباب ، وهو أيضاً تلك الأحاسيس التي تكونت بمرور الأيام عن بلد المصطفى ﷺ وخصوصاً عن ذلك الحي العتيق الذي كانت تطل عليه منـائـر المسجد النبوي ، وتشع على أحيائه أنوار الروضة الشريفة ، لطالما تنقلت بين أزقته ومكثت في دوره ، وخالطت القوم من أهله ، في هذا الحي « الحارة » رأيت خدم المسجد الشريف بهيئاتهم المتميزة يمسكون العصي بيد ويواسون الناس بيد أخرى ، وفيه حملت « الدَّورق » بين يدي ، ينسكب ماؤه العذب في فمي وتلامس وجهي تلك النسمات الباردة المنبعثة من أرض « السبيل » وجدرانه التي تتراص على جنباتها وبطريقة منظمة تلك الدوارق المصنوعة من تراب الأرض الطيبة .

في الحـارة كنت أنصت للأذان يرتفـع من المنارة « الرئيسية » ، يأتيني الصوت ندياً ، يلامس وجداناتي ويبعث صوراً من الذكريات عن تلك العصور التي شهدت انطلاقة الإسلام من هذه الأرض ، فلطالما أَذَّنَ سيدنا بلال من فوق هذا المسجد الطاهر ، ولطالما رتل

آيات الكتاب الحكيم صحابة رسول الله ﷺ من أمثال عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري وسالم مولى أبي حذيفة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ .

عرفت « الحارة » و« سويقة » و« المناخة » و« باب المَصْري » وعِشْتُ ردحاً من الزمن أستمع إلى صفوة القوم من أصدقاء والدي ـ أبقاه الله ـ ، يتحدثون أحاديث فيها الكثير من تلك الحكم والمواعظ التي تربي العقول وفيها أيضاً من الطرائف التي تروح عن النفوس وتدفع عنها الملل ودواعيه ، وإنني في هذه الصور الأدبية التي ضمها هذا الكتاب مدين لوالدي الذي سمعت منه الكثير ولم أحفظ عنه إلا القليل وهذه الصور لا أتطلع من ورائها إلى تدوين التاريخ ورصد الحوادث فكتابة التاريخ بمعناه الاصطلاحي شيء غير هذا الذي يجده القارىء في فصول هذا الكتاب ، وهي ليست بالقصة أو الرواية ، فللكتابة القصصية ملامحها الأساسية التي لا يتوفر بعضها في هذا العمل ، ولكنها تستعير من القصة والرواية ملمحاً هاماً وهو « السَّرد » ، ومن هنا جاءت محاولة البعض لتصنيفها ضمن الأعمال القصصية .

إنه عمل يقف في منتصف الطريق بين التاريخ والعمل الروائي ، ولم أجد عبارة تكاد تنطبق عليه أكثر دقة من « صورة أدبية » ولهذا فليعذرني البعض الذي كان يظن أنني أؤرخ للمدينة وتساءل لماذا ذكرت أناساً وأهملت آخرين ، فالناس عندي جميعاً سواء ، وإنني لأحمل بين جنبات نفسي لهذه المدينة وأهلها ما أمر به رسول الله ﷺ في حق جيرانه من صون ورعاية وتقدير ، إنني يا عزيزي ـ القارىء ـ كنت مثل من يحمل آلة تصوير فيصور ما تقع عليه عيناه دون أن يعي لماذا

وقف هنا ولم يقف هناك ؟ ولم يدرك بواعث الإغراء التي حملته على التقاط صورة دون أخرى ، وأعترف أنني عجزت عن التقاط صور عديدة ، فقدرة الكلمة على التصوير صعبة جداً وقد تَصِلُ أحياناً إلى ما يمكن وصفه بالاستعصاء أو الاستحالة ، وما دمت قد اعترفت بالعجز فأسأل الله أن يثيبني إنْ أصبت ويعفو عني إن أخطأت ـ بغير قصد وتعمد ـ .

لم أكن بشخصي الضعيف ـ من يعزي له هذا العمل المتواضع ، ولكن هناك بعد الله رجال وأخوة كرام يدين لهم صاحب هذه السطور ـ التي لم يكن وراءها دافع إلا حب الله وحب رسوله ﷺ ـ فأنا مدين للشيخين الكريمين جميل شيناوي وعبد الله كامل ومعهما معالي الدكتور محمد عبده يماني بمشاعرهم الإيجابية تجاه هذا العمل ، وكانت هذه المشاعر حافزاً قوياً وراء الإقدام على نشره ، كما كان للخطوة الرائدة التي أقدم عليها معالي الأستاذ أحمد زكي يماني ، وهي تفضله ـ رعاه الله ـ بإهدائي مجموعة صور نادرة عن حارة الأغوات والتي تمثل نمط البناء والعمارة في عُصُور الإسلام الأولى ، وهذه المجموعة هي من مقتنيات السيد الفاضل المهندس سامي محسن عنقاوي ـ الذي ينفق جل وقته في الاهتمام بتراث هذه الأرض الطيبة ، فلأبي هاني وللسيد العنقاوي خالص الشكر سائلاً الله أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم ، أما صحيفة المدينة إدارةً وتَحْرِيراً فلق كانت الأرض الخصبة التي شهدت ولادة هذا العمل ورعته حتى شب واكتمل . ولا شك أن لملحق الأربعاء والعاملين فيه دوراً إيجابياً ومثالياً في الوقت نفسه في التعامل بروح إنسانية رائعة مع كاتب هذه السطور ، وأود أن أشيد بتلك المشاعر الأخوية الفياضة التي غمرني به

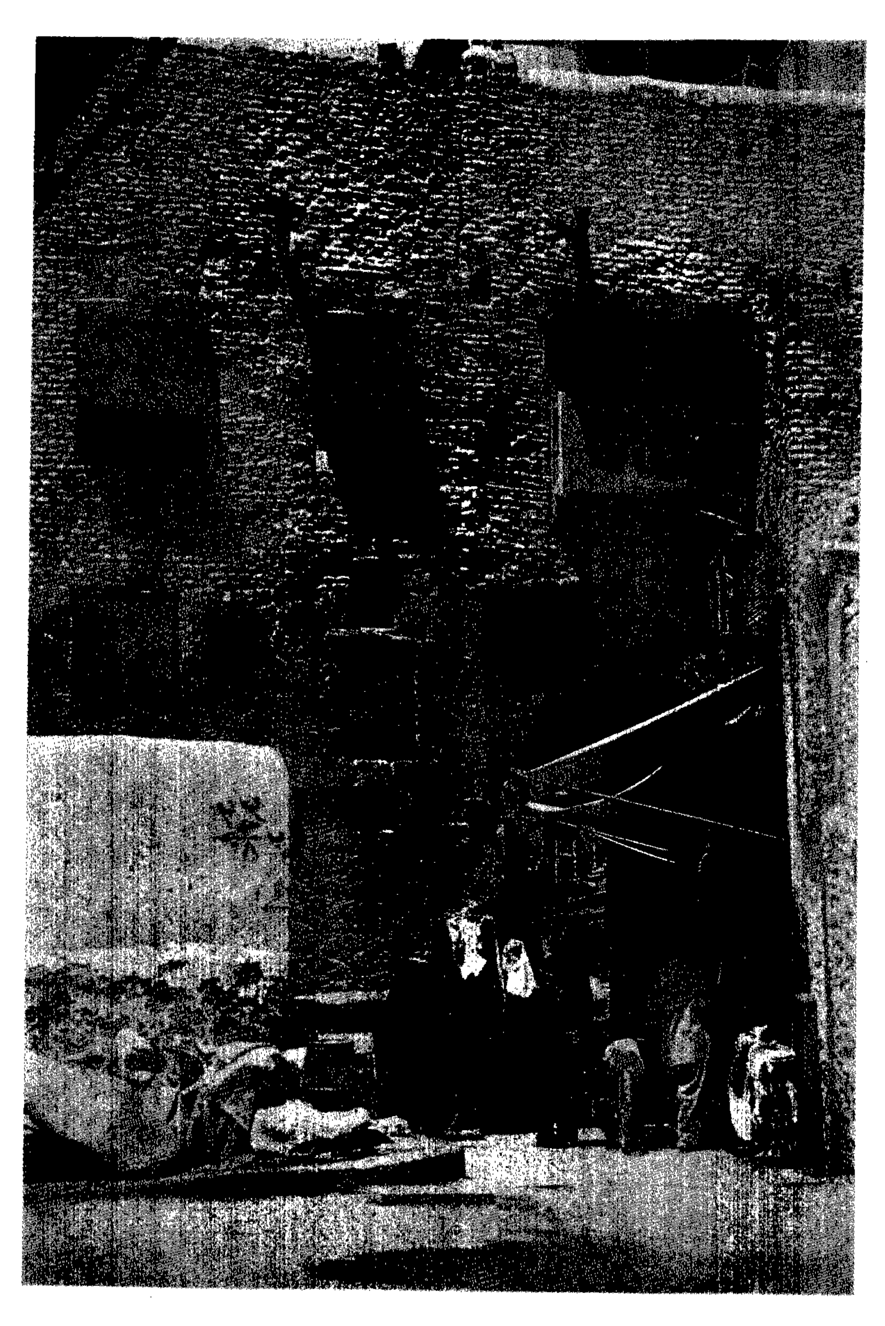
زميل الصبا ورفيق الدرب الأستاذ محمد إبراهيم عبد الستار ـ وفقه الله ـ .

أما الإخوة الكرام والزملاء الأفاضل الأستاذ محمد صلاح الدين ، والدكاترة : عصام فيلالي ، جميل محمود مغربي ، محمد خضر عريف ، راكان حبيب ، حسن باحفظ الله فقد لمست أن هذا العمل يعنيهم كما يعنيني شخصياً وتلك سلكيات نادرة وأخلاق كريمة تعزي الإنسان في زمن أضحت فيه النفس أحوج ما تكون إلى معاضدة الإخوان ومشاركتهم الوجدانية .

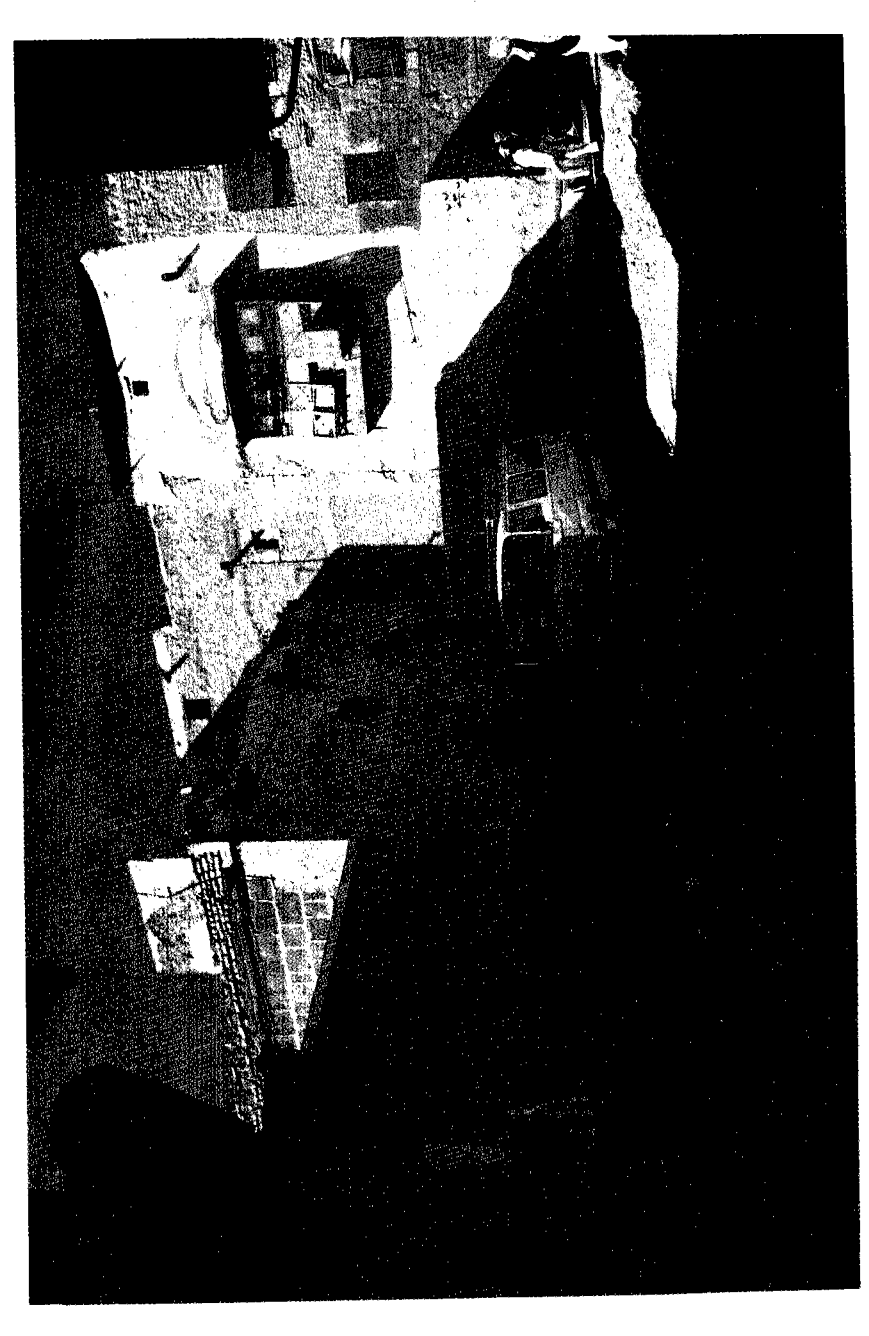
ولا بد لي أن أتوقف عند دور صديقي سعادة الأستاذ الدكتور غازي عبيد مدني الذي كان بتفضله بكتابة مقدمة هذا العمل ، يرعى ذلك الود الذي كان قائماً بين آبائنا في بلد الرسول ﷺ وكم كنت سعيداً أن تكون السطور الأولى في هذا الكتاب هي من نتاج هذا القلم النظيف نظافة صاحبه وطهارة سلوكه وكريم نسبه ، ولن أنسى ثلة كريمة من القراء الذين كان لاستفساراتهم ، وتعليقاتهم وتصحيحاتهم أيضاً دور رئيسي في أن يحتفظ هذا العمل بزخمه الخاص المتمثل في تلك الصلة الإيجابية وذلك التعاطف الذي يتحقق بين القارىء والكاتب وذلك من أهم أسس العملية الأدبية التي لن تحقق غرضها من دون مشاركة هذا القارىء مشاركة فعالة في إنتاج العمل الأدبي ، ولعلي أكون قد نسيت في غمرة المشاغل العديدة بعضاً من الأسماء التي لم تأل جهداً في تقييم هذا العمل أوالتعبير عن فرحتها به ، فلها من العبد الفقير إلى مولاه كل شكر وتقدير ، وصلى الله على سيد الخلق وصفوة البشر محمد بن عبد الله وآله وصحبه وسلم .

جدة : ١٧ / ١١ / ١٤١٢ هـ .

عاصم حمدان علي



جُزْءٌ مِنْ برخة الرُّستمية حيث كان يَقَعُ إلى اليمين مَقْهى المعلّم طينُور وأمامه المبْنى المغلق للعيْن التي كانت تروِّد الحارة بالماء ، كما تظهر تحت « السَّقيفة » التي كانت تَصِلُ بين الدُّور ، تظهر الحوانيت التي كان أهل الحارة يؤمُّون لقضاء حوائجهم



البناء الحجري الذي تقفُ أمامَهُ « السيارة » هو مَبْنَى مدرسة الرُّستمية ويقع بجانبهاالمكانالذي كان يتخذه أتباع الأغوات مَسْكناً لهم ، وكان يتكوّن من غرف صغيرة متجاورة

(١)

تخرج من باب الحرم النبوي المسمى بباب جبريل . فيواجهك هذا الحي ببنائه المتميز ، بيوت متقاربة وطرق ضيقة ومتعرجة . الشارع الرئيسي الذي يخترق هذا الحي والذي كان يسلكه أهل المدينة حاملين موتاهم إلى روضة البقيع أو مسلمين عليهم في المناسبات . هذا الشارع يفضي بك إلى رحبة تضم منهلاً للعين ومقهى صغيراً وبناء قديماً يسمى « الرستمية » أما المنهل الذي كان سكان الحي يستخدمون ماءه في الشرب ويتم هذا الاستخدام عبر وسيلة كانت متداولة في المدينة إلى قبل ما يقرب من ربع قرن من الزمن وهي « الزَّفة » وهي أداة لحمل الماء لتزويد المنازل به ، وكان الشخص الذي يحمل هذا الزفة ويسير بها بين الأزقة والحواري يسمى « السقا » هكذا كانت تنطقه عامة أهل المدينة . وإذا بلغت الحارة وأردت الوصول إلى هذا المنهل فما عليك إلا أن تهبط إليه عن طريق درجه الخاص والمرصوف بالحجر الذي كانت تتميز به معظم شوارع المدينة القديمة وأسواقها « كشارع العينية » ، « وسويقة » ، و« سوق الحدرة » وفي الجهة المقابلة « للعين » أو « المنهل » كان يقوم مقهى المعلم « طيفور » الذي يأمه الناس إذا ما فرغوا من صلاة الصبح وأرادوا الانطلاق إلى أعمالهم ، أو إذا ما أخذت الشمس في المغيب وتطلعت الأنفس إلى الراحة والاستمتاع بتلك النسمات الرطبة التي كانت تنبعث من أرض

الحارة ، فالرحبة تضم العين والمقهى والبناء القديم ويطل عليها منزل شيخ الأغوات يتطوَّعُ « لِرَشِّها » بالماء رجل غريب الأطوار كان يتخذ من الغرف الصغيرة المتناثرة في ذلك البناء القديم مسكناً له ، إنه « عبد الرحيم » لا أعرف له لقباً أو كنية ، يلبس الأسود من الملابس . لا يتحدث إليه أحد من أهل الحارة أو من غير أهلها الذين يأمونها ولا يتحدث هو إلى أحد ، يقضي سحابة نهاره في الحرم قارئاً للقرآن وإذا ما واتتك الفرصة ووصلت الحارة في الهزيع الأخير من الليل فستلمحه صاعداً من العين حاملاً الماء على كتفيه ثم ساكباً له في تلك الرحبة كأنه يهيئها بتلك السقيا لبقية القوم من أهل الحي الذين يحبهم ويحبونه ولكنهم يتورعون عن الحديث إليه فغضبه لا يطاق وحياته تنطوي على سر وما أكثر الأسرار في حياة أهل الحارة ، ولم يكن « عبد الرحيم » الذي يتخذ من « الرستمية » والتي اعتقد أنها كانت في حقبة ماضية مدرسة من المدارس التي أقامه الوزير رستم باشا في ما أقام من مؤسسات خيرية في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، لم يكن صاحبنا الوحيد الذي لم تهيء له فرص الحياة أكثر من مساحة محدودة في البناء الذي كاد أن يتهدم لتقادمه بل كان في جواره يسكن العم « حسن » الذي قضى جزءاً من حياته في « مكة المكرمة » وعلى وجه التحديد في حي الشامية حيث كان يعمل في بيت المحجوب ، وكان عمل العم « حسن » هذا ينحصر في إعداد الطعام عندما تكون مناسبة معينة في الحي ، وليس بعيداً عنهما كان يوجد « زايد » و« سعد » يحفران القبور في بقيع الغرقد نهاراً ويأويان إلى « الرستمية » ليلاً راضيان بما كتب الله لهما وقانعان بهذه القسمة من الرزق . ثم العم « حسب الله » الذي كان يحترف صنعة «النجارة» وكان إلى جانب قيامه بهذه الصنعة يمثل

الشخصية التي تتمحور عليها لقاءات سكان الرستمية وذلك بحكاياته الطريفة التي كان يرويها لجلسائه ، وبتعليقاته التي لا يسلم أحد منها حتى المعلم « طيفـور» نفسـه والـذي كان يعتـبر مسؤولاً عن مبنى « الرستمية » فهو من أتباع الأغوات أو كما يقال من « عتقائهم » اسمه « محمد » و« طيفور» اسم « سيده » من الأغوات ، ولقد امتد العمر بالمعلم « طيفور» إلى ما يزيد عن ثمانين عاماً وكان يبدو للآخرين في تمام الصحة لم ينحن له ظهر أو تتغير له ملامح ، يلبس ذلك الثوب الفضفاض ويشد على وسطه حزاماً ويعتمر « كوفية » بلدي منشّاة ، ولا يتعمم ولكنـه يلقى « بالسِّليمي » على كتفـه ويبقى طرفه الآخر متدلياً حتى ليكاد يلامس الأرض ، يجلس على كرسي صغير مصنوع من « الشَّريط » وإذا ما جلس فهـو منشغل بشيء واحد وهو شرب « النارجيلة » يهيئها هو بنفسه ، يخرج « دخان الحُمِّي » النوع الممتاز منه « الغَيْلي » يبله بالماء ثم يفركه بأصابعه حتى يجف ثم يضعه في « الرأس » المصنوع من الفخار ، وزياة في إتقان « التعميرة » فإنه ينفخ الـرأسَ مِن أسفله حتى تتداخل حبات « الحمِّي » وتندمج مع بعضها البعض عندئذ تطيب نفسه فيضع على «الحمِّي» حبات صغيرة من النـار ، يخرج « ملقـاطـه » الصغـير ويحـرك الجمرات وربما استبدل « ولعة » بأخرى لا تسمع « لنارجيلته » صوتاً ولكن بإمكان أذنك أن تميز صوت أنفاسه وهي تمتح من ذلك الدخان الذي يملأ برائحته ذلك الفضـاء المفتـوح للمبنى العتيق . . قليلاً ما كان المعلم « طيفور» يشارك في أحاديث الجماعة التي تؤم الرستمية أو تسكن فيها من مثل « الحاج التوم » الذي يجيد شيئاً من كلمات اللغة الفرنسية والتي أفادها في مطلع حياته في بلده «السُّودان» والنور و« عبد الله » اللذان كانا

يسكنان رباط موغلاً في القدم وهو رباط « المظفر » الذي إذا ما رغب أحد في دخوله فسوف تقابله عن مدخله درجات وعليه أن يسلكها نازلاً وليس صاعداً فتعاقب الزم عليه جعل كل طبقة منه تمثل عصراً محدداً . .

المعلم « طيفور » كان يمثل لي ولصديقي الأستاذ « أسامة أحمد السنوسي » سراً من الأسرار ، سمعت عنه أنه كان من « مشاكلة » الحارة مثله في ذلك مثل « أبو عشرين » ومن « عناترتها » كما يقولون وظلت هذه العبارات تشكل هاجساً غريباً في نفسي حتى إذا ما حل العيد واحتفل الناس بقدومه ووضع أهل حي « باب التمار » « المزمار » بالقرب من البقيع وكانت حينئذ منطقة شبه خالية من المباني ، ولا يصبر على السكنى فيها إلا القلة من الناس الذين يتوزعون بين ظلال النخيل ويحتمون من الهاجرة بشجيرات الأثل . ذهبت لأشاهد مع الناس من جميع أنحاء المدينة هذه اللعبة التي يقال إنها أفريقية المنشأ ونقلها المهاجرون إلى أرض الحرمين فيما نقلوا من عادات وتقاليد .

ظللت أراقب لعبة « المزمار » وكانت المساحة المخصصة للعب كبيرة جداً ، كان الكبار والقطع والصغار يشاركون في « لفِّ العصا » ويرقصون في حركات غريبة ولكنها طريفة ، شاهدت من الكبار المعلم « حمزة أبو سطوة » الذي كان نازحاً عن المدينة ثم عاد إليها ، والعم « علي رنقا » الذي شارك في بناء محطة سكة الحديد بباب العنبرية ، والذي توفي قريباً عن عمر يناهز التسعين عاماً أو يزيد ، « وعدلى » من مشاكلة الساحة القدامى ، وكان هناك شيخ كبير قدم من جدة لسكنى المدينة هو المعلم « جميل عبده » من أهل حارة اليمن من جدة ، وجه مضيء كانبلاجة الصبح تزينه لحية بيضاء وملامح تشي

بالصفـاء والحب ، هو الآخر أمسك بالعصا ولعب بها ، كان معتماً بالغباني الأصفر فوق رأسه، وشاداً الإزار الأخضر في وسطه ، ومع أني كنت أنقل طرفي في ساحة اللعب من جهة لأخرى ، إلا أن فضولي كان ينصرف إلى شيء واحد فقط وهو الرغبة في رؤية المعلم « طيفور » الـذي كان غائبـاً عن الساحة ، وعندما سألت أحدهم عنه ، كان جوابه مقتضباً ، المعلم « طيفور » لا يلعبُ « المزمار » وانفض الجمع بعـد أن تحركت منهم الأجسـام وتقـابلت العصى من فوق الرؤوس وحرَّكت الأرجل تراب الأرض الساكن وذراته ، وخلت الساحة إلا من صدى يردد قول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجـون إلى الصَّفـا
أنـيس ، ولم يسـمـر بمـكـة سامـر

لقد مات « طيفور » ولم أجرؤ يوماً لأسأله لماذا لا يلعب المزمار؟ أو أستفسر منه عما أفضى به لي الأستاذ عبد الستار بخاري ـ رحمه الله ـ ذات يوم فلقد أومأ بأصبعه تجاه « طيفور » الخارج يومها من باب الرحمة وقال هذا رجل شجاع فعل كذا وكذا عندما كان شباباً ، وبقي السر مدفوناً هناك في الحارة وذهب مع الطيبين من القوم الذين لم يبق منهم أحـد ، فلقـد ساروا جميعـاً إلى رحمة الله ضمتهم الأرض التي أحبوا واحتواهم التراب الذي عفروا فيه جباههم قربى لله وزلفى . .





(٢)

كانت الحارة تشتق اسمها من الأغوات الذين كانوا يهبون أنفسهم لخدمة الحرمين الشريفين . ففي المدينة كانوا يقومون بتنظيف المسجد وتهيئتـه نهاراً وحراسته ليلاً بعد أن تقفل أبوابه ، كان نظامهم الذي أرجح أنه يعود إليالعصر المملوكي نظاماً يقوم على الدقة والإتقان يأتون في موعد محدد وينصرفون بعد أن يكون كل واحد منهم قد أدى ما يوكل إليه من عمل ، كان لا يسمح لهم بالدخول من باب جبريل بل يجب أن يدخلوا من الباب الآخر المجاور له فدخولهم من هذا الباب يمكن الشيخ أو نائبـه أو رأس الخيالـة من معـرفـة الوقت الذي دخل فيه الشخص المكلف بأداء الخدمة من بينهم .

مع ارتفـاع صوت الأذان الأول من المنـارة الـرئيسية في المسجد والذي كان يخترق سكون الليل في سماء المدينة كنت تسمع صوت باب يفتح هنا وآخر يوصد هناك ووقع خطوات واثقة تتلمس طريقها وسط الـظلام الـذي كان يلف منعـطفـات الحارة ويغطي منازلها بغلالته السوداء ولم يكن ليخفى على أحد عندئذ أن القوم يتجهون إلى المسجد فهم من أول الناس دخولاً له كما أنهم آخرهم خروجاً منه .

كان الغالبية منهم تأتي من بلاد السودان ولكن كتب تاريخ المدينة وخصوصاً ابن فرحون في (نصيحة المشاور وتعزية المجاور) يتحدث عن أجناس مختلفة منهم ولقد حدثني الشيخ مصطفى العلوي أمد الله

في عمره وكان كاتباً لأغوات المدينة لحقبة من الزمن بأنه أدرك اثنين من الأغوات يعودان إلى أصل تركي ويشتركان في اسم واحد هو « سليم » وهما من عتقاء عبد الله باشا ، وقد أهداهما لمسجد المدينة ، وكان من بين أغوات المدينة من اشتهر بالعلم والتفقة في الدين مثل خليل أغا الذي تولى مشيخة أغوات المدينة بعد الستينات الهجرية وقد قرأ القرآن على الشيخ مصطفى الذي أتينا على ذكره قبل قليل كما اشتهروا بعمل الخيرات ومساعدة المحتاجين من الناس فخليل أغا بنى مسجداً في حي قباء لا يزال موجوداً ويعرف باسم مسجد الأغا كما أوقف رباطاً على الفقراء لا يزال يحمل اسمه في حي باب الشامي ، وحي العنبرية مدخل المدينة للقادم من مكة وجده يقال أن اسمه مشتق من «عنبر أغا » كما يوجد مسجد على يسار الداخل من شارع العنبرية ينسب إلى حافظ بهرام أغا .

كان الأغوات الذين أدركتهم تتوزع منازلهم في أماكن مختلفة من الحارة وكان البعض منهم قد نذر نفسه بالكلية لعبادة الله وخدمة مسجد رسوله ﷺ فلا يعرف من المدينة إلا مسجدها وموضع سكناه ، كما أن بعضهم قد بلغ من كرم اليد وسماحة النفس شأواً عظيماً كان بينهم شخص اسمه « أحمد » وينطقونه في الحارة « هكذا » « أحمدو» . . ولا أعرف من أين جاء للغة المدنيين هذا الإشباع للحرف الأخير مِن الإسم .

كان أحمد هذا لا يسمع عن واجب عند أحد من أهل الحارة إلا وأرسل إليه ما يعينه على أداء واجبه وكان إذا طلب من أحد قضاء حاجة ولم يجد ما يكافئه على قضائها له نزع ساعته من يده وأهداها إليه . . هكذا سمعت من سكان الحارة وبالتواتر بعد وفاة هذا الإنسان

وانتقاله إلى رحمة الله .

ولا أنسى موقفاً حدث لي مع واحد منهم اسمه « الضوء » كنت صغيراً أسير في الحارة مع أحد أصدقائي وكان الضوء ينظر إليها من نافذة منزله وما أن سلمنا عليه حتى بادرنا بهديه قذفها علينا من أعلى داره المطلة على واحد من تلك الأزقة الضيقة التي كانت تشتهر بها الحارة أما « جاه الله ة الذي شارف عمره على المائة حسب أقوال زملائه في المهنة . . فهو مواظب منذ عرفته على أداء الصلوات في المسجد لا يتخلف عن فرض ولا يسكت لسانه عن ذكر ولا تنقطع يداه عن صدقة ، رأيته قبل عام واحد فقط من كتابة هذه السطور وهو يسير بين الدكتين « دكة الأغوات » و« دكة شيخ الحرم » فإذا هو منتصب القامة لا يتوكأ على عصا ولا يتباطأ في مشية ولقد عرفته على هذا النحو منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمن (جاه الله) واحد من الأغوات الذين قدموا المدينة فلم يعرفوا منها غير المكان المطهر الذي أتوا من بلادهم بقصد الخدمة فيه .

عندما تميل الشمس إلى المغيب تعمر رحبة الحارة بالناس ومن بينهم فئة الأدلاء العاملين بالحرم فتتهادى إلى أذنيك بين الحين والآخر أصوات من ضحكاتهم البريئة وأحاديثهم المسلية ، فيخرج الأغوات من منازلهم التي تحيط بها الحوانيت من كل ناحية يجلس أحدهم واسمه « محمد حسن » كان سمح الوجه ويميل لونه إلى شيء من البياض ، بالقرب من تلك الحوانيت المتواضعة فياض ـ الأخضر ـ بكر عبد الحفيظ ـ فلا يمر طفل إلا ويداعبه ويقدم له شيئاً من الحلوى التي غالباً ما يتهالك الأطفال على الحصول عليها ويميلون بطبيعتهم إلى من يتوددون بها إليهم . .

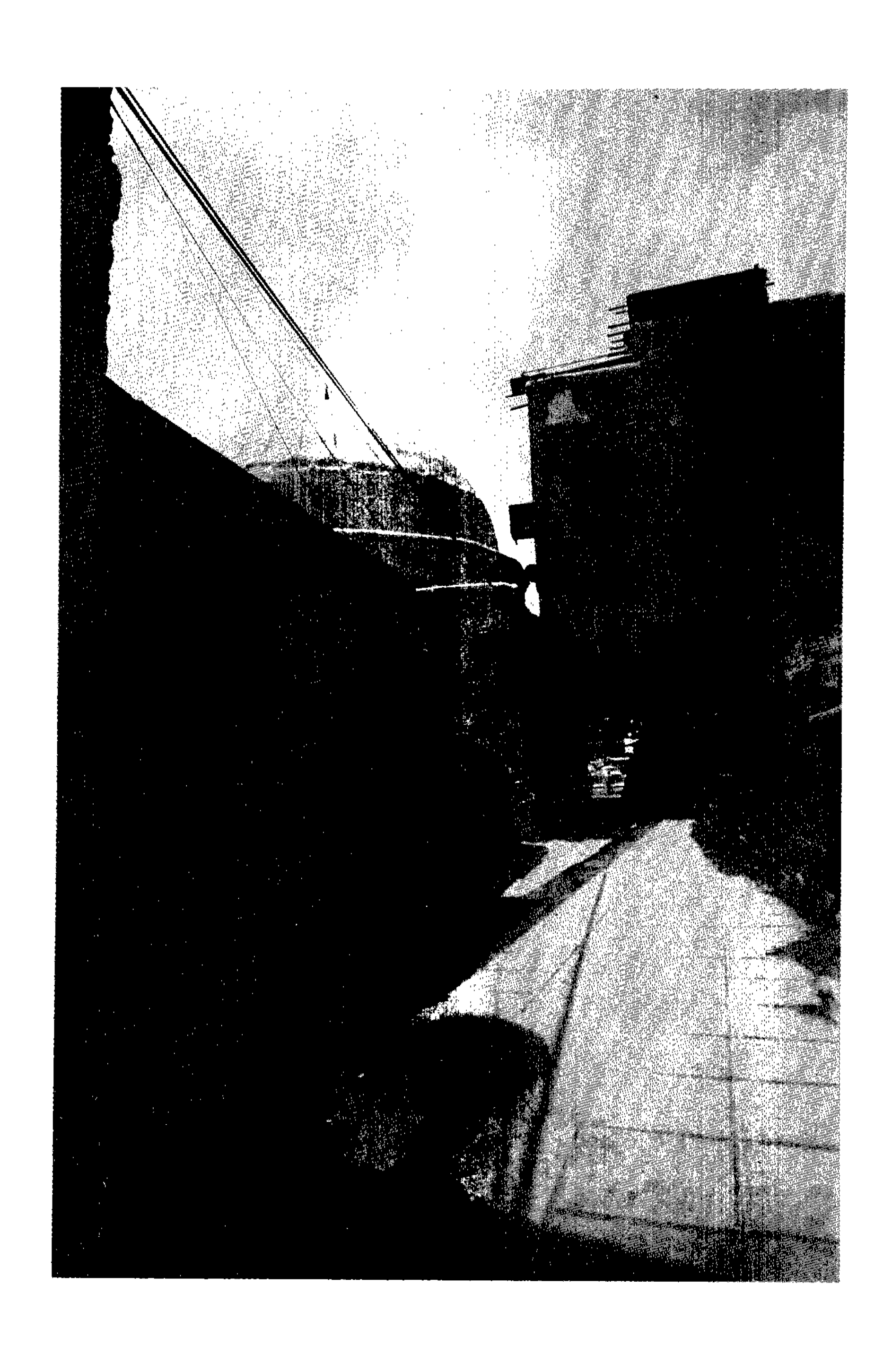
رحم الله القوم فلقد كانت الوجوه منهم مستبشرة والصدور منهم متسعة والأيدي منهم سخية ورحم زماناً عاشوا فيه كانت القلوب فيه عامرة بالإيمان والألسنة لا تنقطع عن الذكر والدور لا يتردد فيها غير آي من الذكر الحكيم أو مقاطع من سيرة المصطفى ﷺ .

(٣)

كانت الحارة تشتمل على معالم خاصة تتميز بها ويسكنها أناس هم في سيرتهم وأخلاقهم جسدوا تلك المثل الحسنة التي عرف بها سكان البلدة الطاهرة من رقة ورأفة وسعة أفق .

من المعالم تلك الأماكن التي كانت تزود الحرم الشريف بالماء ويعرف المكان الذي يحتفظ فيه بالماء بارداً ونقياً باسم (السَّبيل) ومنذ أن تشق طريقك صاعداً إلى الحارة سوف تجد هذه الأماكن متوزعة بين أزقة الحارة ومنعطفاتها . فهنا سبيل « مالاه » وهناك سبيل (الأفندي) وفي الرحبة الأقرب إلى البقيع يوجد سبيل (المنادى) و(الشريف حسن) وسوف تلمح شباباً خارجين منها يحملون (الدوارق) المصنوعة من الفخار بين أيديهم ومسرعين بها في نشوة وحماس إلى الصناديق المخصصة لها بين أروقة المسجد ، وكانت قدرات هؤلاء الشباب في حمل هذه الدوارق بينها اختلاف واضح ، وكان شهر رمضان المبارك كفيلاً بالتمييز بين هذه القدرات فهو الشهر الذي يزداد فيه الطلب على الماء في الحرم ويستتبع ذلك الاستعانة بعدد كبير من أبناء هذه الحرفة .

أعود إلى الوراء قليلاً بذاكرتي ، وبالتحديد في بداية الثمانينات الهجرية ، كنت طالباً في مدرسة دار العلوم الشرعية ، وكان نظام المدرسة يسمح بخروج الطلاب من المدرسة أثناء ما كان يسمى



الطَّريق إلى حَمَّام طيبة ـ أحد معالم حارة الأغوات ـ ويَبْدُو المنفذ الذي يَصِلُ الحارة بشارع باب العَوَالي

بـ (الفسحة الكبيرة) وهو قريب إلى النظام الذي عادت إلى الأخذ به مدارسنا في الوقت الحاضر ، فطلب مني ذات يوم زميل اسمه (بشير العقيبي) مع زميل آخر مساعدته في حمل الدوارق من (السبيل) إلى الحرم ، ولما كنت جاهلاً بأصول المهنة فلقد سقطت على الأرض ولم تقو يداي على حمل (شكّــة الـدوارق) وكـانت هذه البـداية في تاريخ معرفتي بهذه الأماكن ، ثم قادتني الأقدار إلى الحارة في المرحلة التالية من حياتي ، فإذا أنـا أقضي فيها من الوقت بحكم القرب من الحرم ودراستي فيه أكثر من الوقت الذي أقضيه في حارتي التي نشأت فيها وهي (حارة العنبرية) وإذا أنا أعرف في الحارة من الناس الطيبين من كان لهم دور كبـير ـ بعـد الله ـ في توجـيه حياتي وفي تشـكـيل المناحي الفكرية لدي ، من هؤلاء صديقي (أحمد الزين) الذي كان فيه من طيبة القلب وسماحة الخلق وكرم النفس ما حملني على أن أؤم دَارَهُ كل صباح ومساء ، يلقي علي من شعره الذي يمدح فيه الرسول ﷺ ويتشـوق به إلى ديار الهدى والإيمان ، وإن أبيات هذا الشعر وقوافيه لتذكرك بالرواد الأوائل الذين ارتبط اسمهم بهذا الفن الشعري مثل الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه أو المتأخرين الذين أثروه بإبداعاتهم المشهورة مثل البرعي والبوصيري ـ رحمهما الله . .

وفي وقت لاحق تعرفت على شخصية كريمة كانت تسكن الحارة وبـالقـرب من منطقة (ذروان) وهي بئر أثرية مشهورة ، ذلكم هو الأستاذ الفاضل والمربي الكريم محمد حميدة ، الذي عرفته بداية فيما كان يكتبـه على صفحات جريدة المدينة المنورة في الحقبة التي كانت تصـدر فيهـا في المـدينة المنورة ـ ولكن في بداية التسعينات الهجرية جلست إلى الأستاذ حميدة واستمعت إليه محدثاً يشدني ما يتسم به

حديثه من صدق وينتزع إعجابي تلك الإحاطة الشاملة لديه بالتيارات الفكرية في العالم الإسلامي ، كان يحدثني حديث العارف عن الفكر عند محمد الغزالي السقا وأحمد جمال وأحمد عبدالغفور عطار ، وينزع في أحياناً إلى دنيا الشعر ، فإذا هو قارىء متذوق وناقد خبير لما يبدعه شعراء الرعيل الأول أمثال شحاته والعواد وضياء الدين رجب ويضع بين يدي ـ وبكل تواضع ـ خلاصة تجربته في الحياة العلمية والتربوية . لذا فأنا مدين له بالكثير فلكم قضيت من الوقت المفيد مستمعاً إليه تارة ومُناقشاً له أخرى وبالقرب من مكتبته التي تحتوي على أمهات المصادر والمراجع في الفكر والتراث ، ولكم زودني بما أحتاج إليه من كتب ، هو والمرحوم الشيخ ـ جعفر فقيه ـ يمثلان في أخلاقهما ويجسِّدان في سلوكهما ذلك السلف الصالح من علمائنا الذين كانوا يحببون العلم إلى الناشئة ويرغبونهم بما وهبهم الله من حكمة ومعرفة في الدرس والتحصيل .

وكان يسكن الحارة أيضاً ـ شيخ فاضل تدنيك منه ملامح إيمانية مضيئة ويستهويك ذلك الهدوء والسكينة اللذان تنطبعُ بهما ملامح شخصيته . كان يخرج من داره الملاصقة لمنهل العين في الحارة ، فإذا المقام يستقر به في ذلك المكان المعروف ـ بدكة ـ شيخ الحرم ، والواقعة على يسار الخارج من باب جبريل . ويجلس إلى جانب صديقه الشيخ الجليل ـ جميل شيناوي ـ أمد الله في عمره ـ ويصلي إلى جانبهما زمرة من أهل الفضل أحد حفظة كتاب الله المعروفين في البلدة الطاهرة الشيخ حسن بخاري ـ رحمه الله ـ وكان بين الشيخين عبد الجواد والبخاري من المحبة في الله الشيء الكثير ، وكانت من دلائل تلك المحبة وصدقها انتقالهما إلى رحمة الله في يوم واحد .

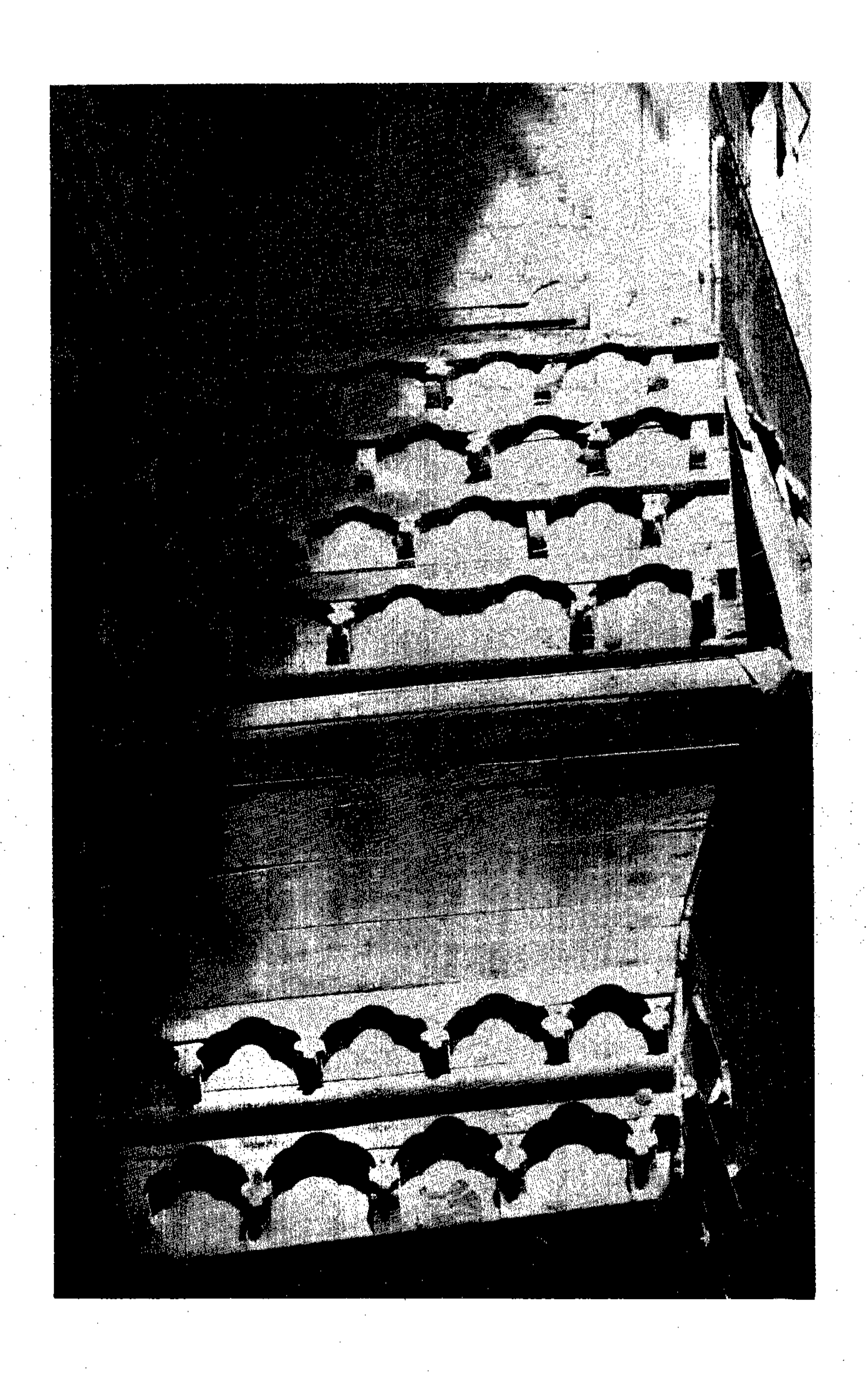
ولقد ترك (الشيخ أحمد عبد الجواد) الذي كانت تربطه علاقة وثيقة مع شيخ الأزهر السابق الدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ العالم الإسلامي (الدّعاء المستجاب من الأحاديث والكتاب) وسلسلة
العالم الإسلامي (العاء المستجاب من الأحاديث والكتاب) وسلسلة
كتب في التعريف بدين الإسلام باللغتين العربية والإنجليزية ـ وكتاب في علم المواريث وأصوله ، ولعل تأليفه لهذا الكتاب الأخير نتيجة طبيعية لتبحّره في عُلُوم الرياضيات التي كان يساعدنا في حل بعض مسائلها أثناء دراستنا بالمرحلتين الإعدادية والثانوية .

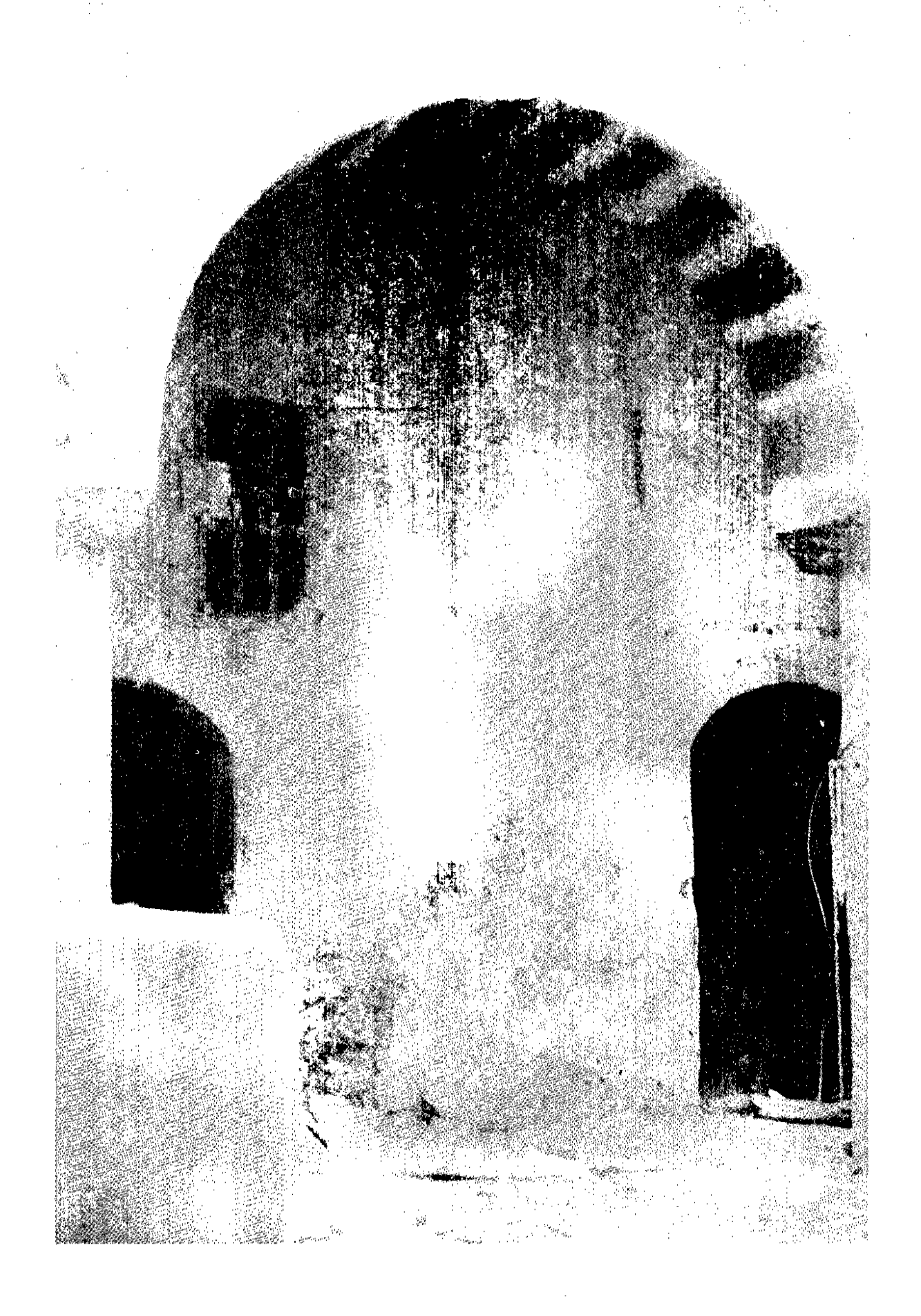
وليس بعيداً عن الشيخ عبد الجواد كانت توجد دار الشيخ عبد الكريم السناري والد صديقنا الأستاذ عبد الرحمن عبد الكريم ـ المستشار بوزارة البترول والثروة المعدنية ـ وكان الشيخ عبد الكريم إذا ما صلى صلاة العصر تهيأ لاستقبال زواره من أهل العلم والفضل ، وكان من بين الذين يأمّون داره العلامة حسن مشاط ـ رحمه الله ـ وذلك عند حلوله في البلدة الطاهرة زائراً .

وفي الناحية الأخرى من الحارة والتي تسامت الشارع العام الذي كان يحجز الحارة عن البقيع كان يسكن الشيخ حسن فلاته ـ رحمه الله ـ والد الصديق الدكتور عمر فلاته الأستاذ ـ بكلية التربية بالمدينة المنورة ـ وكان هذا الشيخ ذا سمت حين وأخلاق كريمة فأنت لا تكاد تحس به وهو خارج من داره لأداء الصلوات في الحرم النبوي الشريف ، وكان ـ رحمه الله ـ خفيض الصوت مطمئن النفس ساكن الجوارح .

ذات يوم كنت أجلس في رحبة الحارة فإذا رجل يضع نظارة على عينيه ويلبس ما كان يعرف عند أهل المدينة المنورة (بالسّديرية)

يبـادئني بالتحية ويسألني عن (حارتي) لأنني أبدو غريباً عن الحارة وأهلها ، ولما أجبته ابتسم وقال لي أنا أعرف جَدّك لأبيك وسرد علي شيئاً من صفـاتـه وسماته وظل جدي ـ رحمه الله ـ يعيش في نفسي بذلك الـوصف الـذي مسعته منه . لقد رأيت جدي بعيني المرحوم ـ أحمد هندية ـ الذي عاش في الحارة وحيداً ومات وحيداً . .





(٤)

أشياء عديدة ومتباينـة كانت تجذب الناس إلى تلك الحارة أو تدفعهم لزيارتها بين الحين والآخر . من بين تلك الأشياء « مخبز المعلم حجازي » رجل تقدمت به السن ولكنه لا يزال حريصاً على الكسب من صنع يديه . . يلبس ثوباً رقيقاً من الشاش ويضع نظارة على عينيه مشدودة إلى أذنيه بخيط مفتول يسمى في لغة سكان المدينة بالدبارة ، يأوي إذا ما جن الليل إلى غرفة صغيرة في الدور السفلى من أحد بيوت الحارة ، تلك الغرفة هي عالمه الوحيد الذي عاش فيه الحقبة الأخيرة من حياته حتى انتقاله إلى رحمة الله ويستيقظ مع «الأذان الأول» فالحرم على مقربة منه وبعد أن يصلي مع الجماعة يذهب إلى « الفرن » ويشرف بنفسه على « تقريص » الخبز المصنوع من القمح والذي يتدافع الناس للحصول عليه كان « محمد حجازي » ـ رحمه الله ـ حاد الطبع لا يطيق الثرثرة وكثرة الكلام ، أما حديثه فهو مثل حد السيف القاطع ، يأبى أن يقول ما لا يؤمن به . أو يجامل فيما يعتقد أنه يتعارض مع أخلاقه ، هو في ذلك مثل كل رجال الجيل السابق ، لم يتلقوا التعليم انتظاماً ، ويتدرجوا في تلقي فنـون المعـرفـة . ولكن الفـطرة كانت تضبط كل سلوكياتهم وتـوجـه نشاطاتهم في هذه الحياة توجيهاً سليماً وصادقاً في الوقت نفسه .

* * *

« حجازي » لم يكن من أهل الحارة ولكنه انتقل إليها من حارته الأولى « العنبرية » التي كان يعمل فيها نفس الحرفة التي امتهنها بعد انتقاله إلى حارة الأغوات ، ولقد كان متقناً لأصول حرفته إتقاناً كاملاً لا يخرج بذلك عن الإطار الذي كانت تدور فيه جميع الحرف الأخرى ، وهو إطار محكوم بأخلاق المهنة والمحافظة على سمعة العمل وصاحبه ومن هنا تكون الجودة ويتحقق الإتقان .

المخابز في المدينة المنورة والتي كانت جميعها تشترك في سمة واحدة وهي الاعتماد على النار الطبيعية والتي يشكِّل الحطب أساس وقودها . هذه المخابز كان يتركز وجودها في زقاق « الطيار » ومن أشهرها « العمرى » و« أبو عنق » في الصباح يخصص بعضها لصنع « الشريك » أو« السّحيرة » كما يسميه جيران بيت الله من أهل مكة - شرفها الله - وفي الظهر « الخبز » وأنواعه كثيرة أجودها المصنوع من حب القمح ، وفي المساء صنع أنواع أخرى من « الشريك » أشهرها ذلك المستطيل والمدهون بالسمن والذي يستخدم في حفلات الأعراس .

وفي الضحى حيث تعمر مقاهي المناخة بروادها وتمتلىء المراكيز بالزوار من كل مكان . وتفتح حوانيت بائعي اللبن أبوابها لشرب الحليب أو تناول اللبن والزبدة . في ذلك الوقت من النهار ترى العاملين لدى تلك المخابز يحملون فوق رؤوسهم طاولات « الشريك » والخبز وهم يعبرون شارع المناخة المظلل بالأشجار إلى سوق العياشة واحد من تلك الأسواق التي تتجاور مع بعضها البعض وتلبي حاجة من يؤمها من الناس ، ولكن المنظر الوحيد الذي لا أنساه واحتفظت به ذاكرتي لمدة تقارب ربع قرن من الزمن ، هو الطريقة التي كان يسير

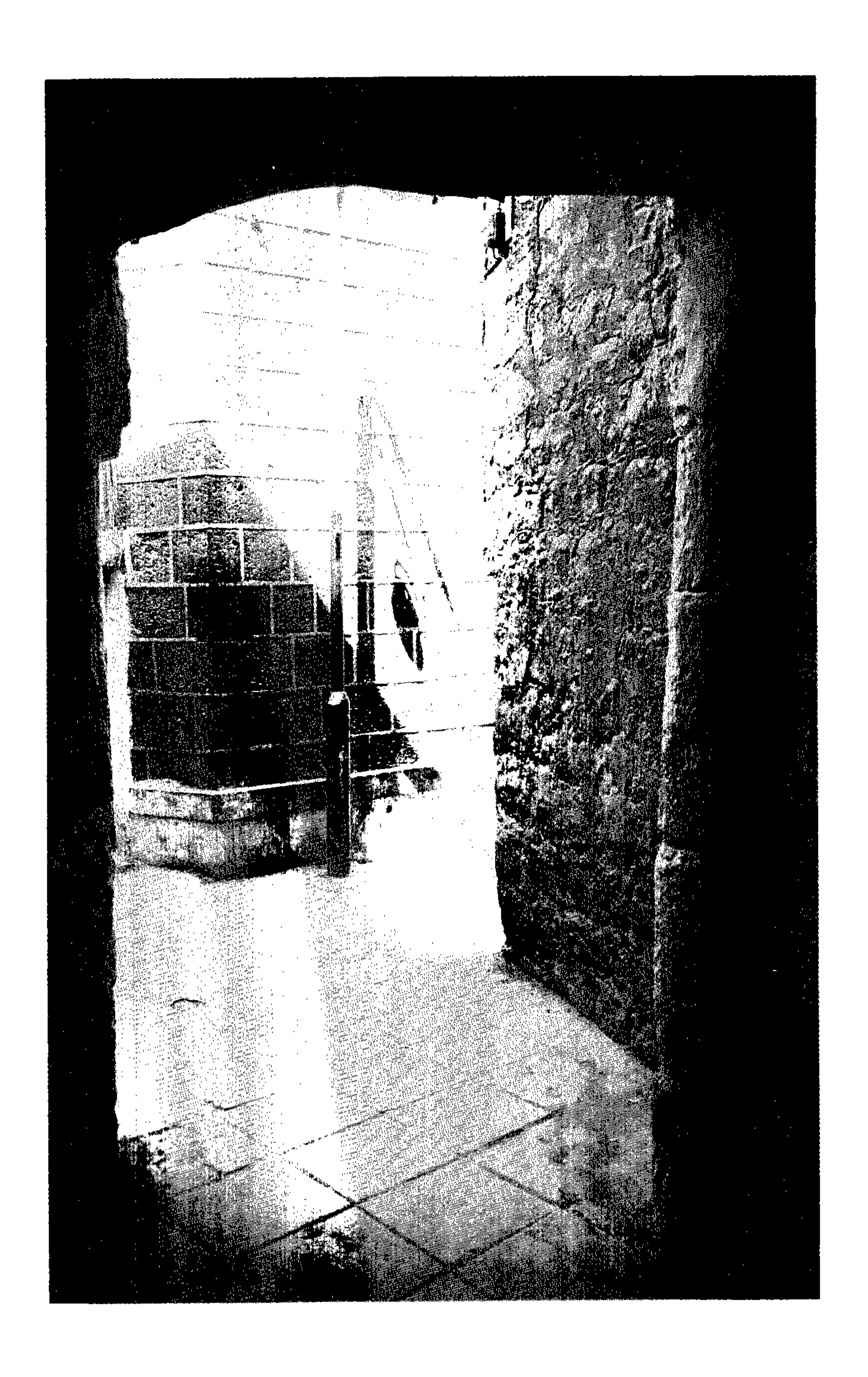
بها بعضهم وهم يحملون ذلك الخبز ، فهم يسرعون في مشيتهم وقد أسبلوا أيديهم إلى الأسفل وكأنهم لا يحتاجون إلى تلك الأيدي للقبض على « طاولة » الخبز . لعله شيء من الخبرة والمران اكتسبوه من طول العمل في الصنعة أو الرغبة في إبراز الموهبة أو هو مزيج من الإثنين معاً وإذا وصلوا إلى السوق ودفعوا به إلى الباعة سمعت الأصوات ترتفع من خلف « اشرعة » الحوانيت تكاد تختلط مع بعضها ولكن في غير نشاز أو تنافر .

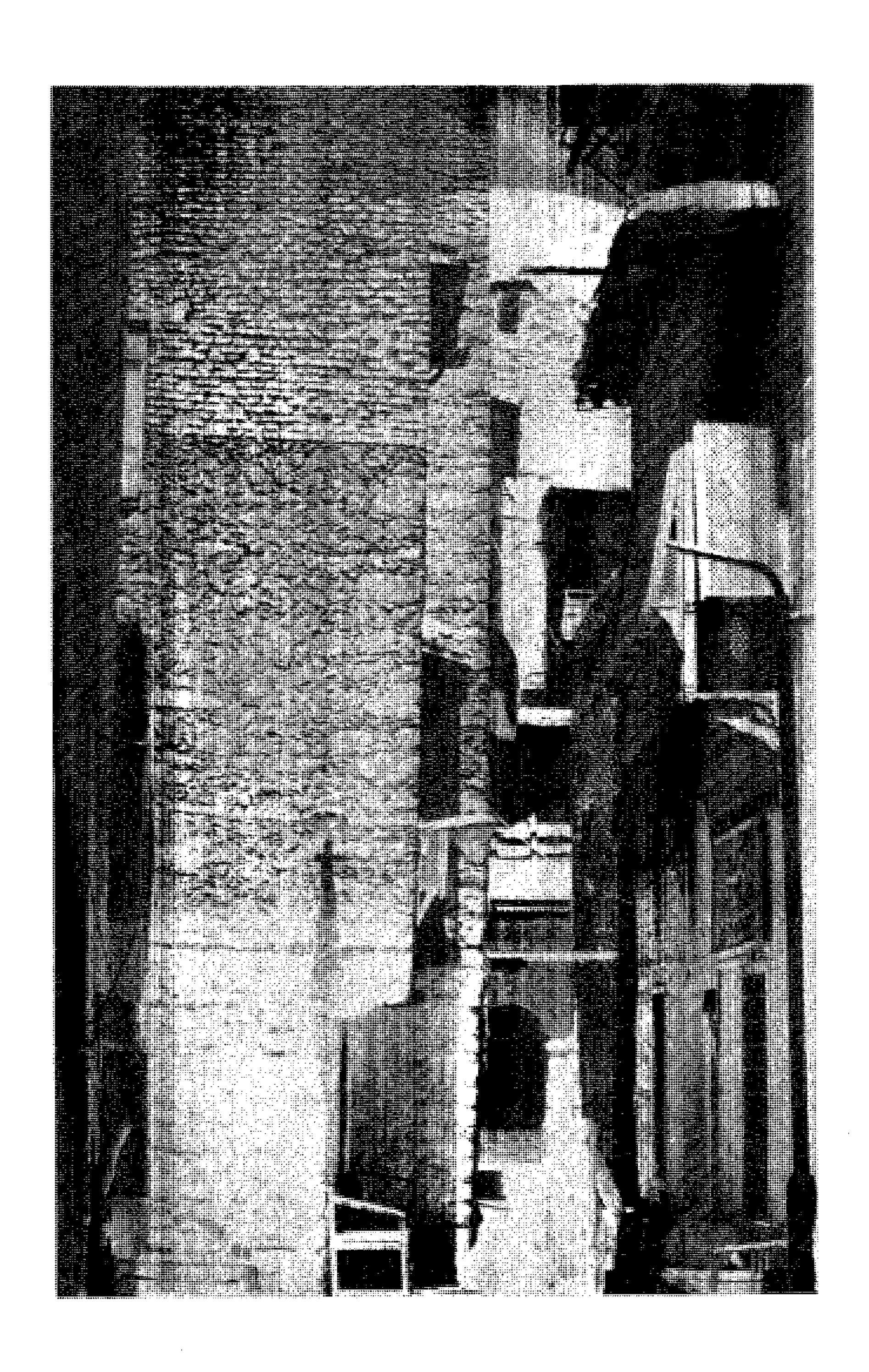
في زقاق « الطّوال » الذي كان يمكنكَ أن تلج إليه من طريقين أحدهما وهو سوق « القَفّاصة » والذي تنتشر على جوانبه أيضاً حوانيت تخصص بعضها في صنع الأثاث الذي كان يستعمله أهل المدينة في منازلهم . وتخصص البعض الآخر في إصلاح المصابيح التي عرفت في حقبة ماضية باسم « الأتاريك » كما يمكنك بلوغه من طريق آخر وهو شارع الساحة المتميز بدوره المبنية من الحجر والمزدانة واجهاتها « بالمشربيات » والتي تبرز من خلال تلك اللمسات الفنية الرائعة الموجودة فيها ذلك الحس الحضاري الذي عرفت به المدينةالمنورة على امتداد العصور الإسلامية . في هذا الزقاق كان يقع « مخبز البرى » لصنع الشريك وعلى وَجْه التحديد كان يقوم هذا المخبز في صدر الرحبة التي كان يقع فيها « دار النابغة الصغرى » حيث مدفن والد رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد المطلب كما أثبت ذلك بعض أصحاب السير ، ولا أعلم إذا ما كانت تلك المنطقة جزءاً من دور بني النجار الذي كانت فيهم خؤولة والد النبي ﷺ الذي توفي في المدينة بعد رحلته إلى الشام وتم دفنه في ذلك الموقع .

كان من بين جميع مخابز المدينة مخبز واحد ينسب إلى اسم «امرأة»

وهو مخبز « وحيدة » وكان هذا المخبز يقوم في حي « الشونة » المؤدية طرقه إلى الحرم النبوي الشريف وشارع « سويقة » المشهور وبالتحديد خلف الدار الكبيرة المتميزة ببنائها من الحجر المنحوت والعائدة لآل « ظافر» والتي كان يسكنها ال « الخريجي » ثم سكنها من بعدهم آل « ساعد » ولا أعلم هل كان مخبز « وحيدة » يصنع الخبز أم الناس كانوا يذهبون إليه بالخبز لتطييبه بعد أن يصنعوه في بيوتهم كما كانت هي العادة عند أهل المدينة في تلك الحقبة التي أصبحت جزءاً من الماضي الذي يحتاج إلى أكثر من هذا السرد العابر الذي اعتمد في تدوينـه على الذاكرة، ولربما اعتور هذا السرد شيء من النقص في فصوله أو بعض الخـطأ ، وهي فرصة مناسبة أدعو فيها الزملاء الكرام ممن عايش تلك الفترة إلى تذكيري بما وقع فيه النسيان وتصحيح ما أخطأت القول فيه ، وهذا هو المنهج الذي أؤمن به في هذه المحاولة الكتابية التي تستهدف مقاربة بعض النواحي الاجتماعية ووصف وقائعها حيث لا تتوفَّر على وثائق تساعدنا في معرفة دقيقة بذلك الواقع الاجتماعي أو وصفه أو الحديث عن رجاله . إلا أن ذلك لا يمنعنا من ضبط هذا السرد الكتابي بشيء هام وأساسي وهوالتقيد بما يرضي الله ورسوله ﷺ نائين عن التعرض للناس بما يسوء وخصوصاً أولئك الذين انتقلوا إلى جوار ربهم وأصبحوا بين يدي رحمته ، فالشريعة الإسلامية الغراء أمرتنا بذكر محاسن موتانا وأن ندعو لمسيئهم بالغفران ، ومتحفظين كذلك على الكتابة في قضية أنساب الأسر دون أن نملك الدليل الثابت أو الرواية المتواترة التي تعيننا في هذا الشأن كما أننا نناى عن التجديف والحديث في عقائد الناس وما يتصل بها من توجيهات فكرية فتلك أمـور مردهـا إلى الله وحـده . . والخـوض فيهـا سواء كان

الغرض منه التسلية أو النكاية والتشهير أمور تنهى عنها مقاصد الشرع الحنيف ، ولا تتواءم مطلقاً مع أخلاقيات العلم ومناهج البحث ، وما أجدرنا بتذكر شيء واحد وهو أننا كما كتبنا عمن سبق فسوف يكتب عنا من لحق . فلنتق الله فيما نكتب وإذا كان هدفنا رضاءه وحده فهو الذي سوف يثيبنا على ذلك كله كما أن الناس سوف تحمد ما نقول وتلك شهادة التاريخ علينا وكفى بها من شهادة .





(٥)

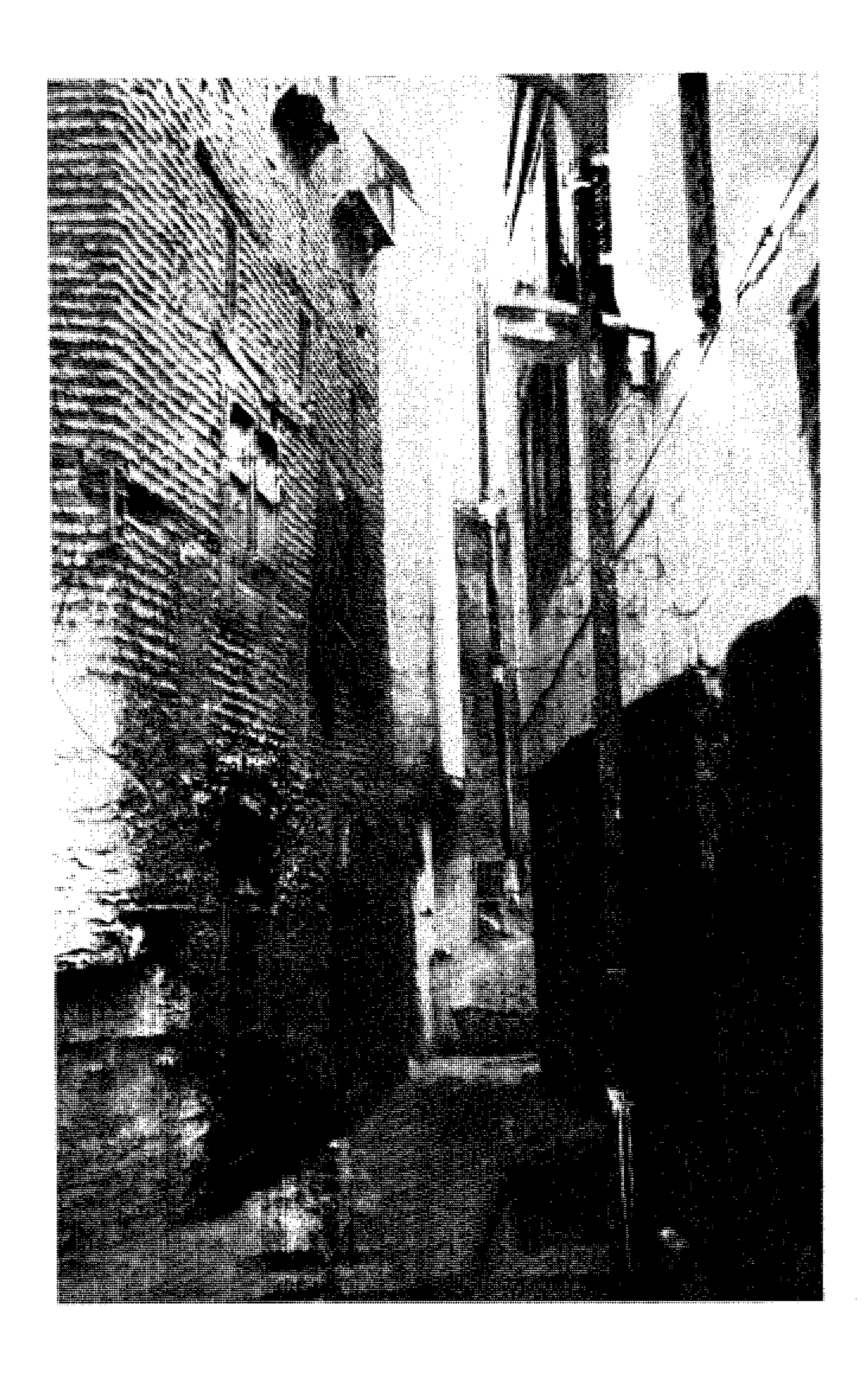
عبد الله سلامة الجهني :

لا أستطيع الهروب منك وأنا أكتب عن الحارة فصورتك تلاحقني وصوتك يملأ أسماعي حيث كنت أجلس إليك في « فرش الحجر» المكان الذي كان إذا ما جن الليل يستقبل أقواماً تعلقت منهم النفوس بحب الله وتوجهت منهم الجوارح لاستدرار رحمته وطلب رضوانه ، يمسك أحدهم بكتاب الله بين يديه فلا يتركه حتى يسمع صوت المؤذن في منارة المسجد ويجلس الآخر للذكر فلا تسمع إلا تمتمة شفته ، هم القوم انشغلوا بحبه عما سواه فأنساهم هموم هذه الدنيا الفانية لأنه تكفل لهم بشؤونها فلا القلق يعرف طريقه إلى نفوسهم ولا الخوف من فقدانها يشكل هاجساً لديهم .

لماذا لا أكتب عن صفاتك السامية للناس أيها الرجل وقد أصبحت بين يدي رحمة الله ، وما زلنا نحن في هذه الدار سائلين الله - عز وجل - حسن المخرج منها ؟ كيف لا أذكر اليوم الذي جلست فيه إليك لأول مرة وكنت - من قبل - أتهيب لقاءك ، كنت بصحبة أستاذ كريم فجئنا إليك وأنت جالس في حرم رسول الله ﷺ وخلف ما يسمى بـ « المكّبرية » حيث يرتفع صوت الإيمان ، فإذا الذي أنا برفقته يطلب منك أن تعينه على أمر من أموره الخاصة ، لقد أجلت بصرك فيما حولك ثم تطلعت إلى الأفق البعيد متجاوزاً حدود هذا العالم ومتخطياً حواجزه ، وجاء الرد منك بكلمات لا زلت أحفظها وها أنا اليوم أرويها ، قلت له عجباً إنني هارب من هذه الدنيا فكيف تأتّى لها

أن تلاحقني في هذا المكان الطاهر ، وساد صمت عجيب لا نسمع في أجوائه سوى رجع أصوات قوم يقرأون وآخرون يسلمون ثم رأيتك بعد هذا الموقف الذي كان بداية محبة دامت لأكثر من عقدين من الزمن . . رأيتك بعدها تدخل المكتبات المجاورة للمقام الطاهر ومن بينها مكتبة « عارف حكمت » فإذا أنت منكب على القراءة ، وكثيراً ما رجعت إلى الكتب المحفوظة في تلك المكتبات فاعلم من إشارات بين سطورها أن يديك لامست صفحاتها ونظرك جال بين كلماتها ، كنت عاشقاً للكتاب كأنك ولدت لتقرأ ، وكتبتَ وألَّفت ولكن بعض ما كتبتَ ظل بعيداً عن متناول الأيدي فلا المكان كان يستقر بك ولا الشهرة كانت تستهويك فأنت طراز فريد من الرجال يحبك الذين عرفوك ، ويعرف منزلتك الذين كانوا يرون حياتك تنزع نحو المثالية ولا تتعايش مع الواقع ، ولكنني أحببت حديثك فإذا أنا أجلس إليك في المدينة في « فرش الحجر» بالقرب من الحارة ، ثم تجمعني بك الأقدار في « مكة » فإذا حصوات الحرم تجمعنا وبيت الله يوحد شملنا ، وأنت ترتدي الإحرام نازح من الدنيا وأنت بين أهلها وزاهد في متاعها بينما كنا نلهث خلف سرابها ، تقول لي : زهدت في صحبة الناس واستعضت عنها بصحبة الله ، أحفظ عنك عظات من القول ، كأن الناس لم يقولوها من قبل لأنك تقولها قول المؤمن بها والمعتقد في صحتها ، ألم تقل يوماً المسلمون أحوج ما يكون إلى أن يحسنوا الظن ببعضهم البعض ، ثم تعقب قائلاً دعونا نحاسب الناس على أفعالهم قبل أن نحاسبهم على أقوالهم . وخاطبتنا يوماً قائلاً ـ وكان ذلك قبل

وفاتك بأسابيع في جدة : إن الدعوة إلى مكارم الأخلاق من أسس هذا الدين العظيم ، لقد كنت متعلقاً بتلك المكارم فلقد سألتك - يوماً - لماذا يبدو هذا الهزال عليك فأجبتني يجب أن نجوع كثيراً لنعرف كيف يجوع الفقراء من الناس، ولقد كنت تكتفي بالقليل من الطعام وتنزع إلى البسيط من الثياب ، وتنام اليسير من الليل ، فلكم كنت ألمحك في « الفرش » متهجداً ، وفي روضة المصطفى ﷺ - قارئاً - وحول البيت طائفاً، فإذا تحدثت عن الدنيا استقر حيثك في الأعماق لأنك زهدت في الدنيا عن قناعة ، ولم يشغلك ما فيها من بهرج أو يستهويك ما يجاوزه الآخرون من متاع ، ولقد تركت خلفك ذكراً حسناً ولمحات إنسانية تجسدت في ذلك التراث الذي كتبت والإبداع الذي دونت والذي لو لم يكن فيه إلا « تفسير القرآن الكريم » و« أفكار بيضاء » . . لكفاك الله به رضا في هذه الدنيا وقربى في الدار الآخرة .





(٦)

لن يكـون هناك أجمل من اليوم الذي يطلع عليك فجره وأنت تنقل خطواتك في « أزقة » الحارة التي يرجع الناس تاريخها إلى عصور الإسلام الأولى ، ولكم دلفت إليها في الهزيع الأخير من الليل ، فإذا الهدوء يشمل كل شيء والسكينة تعمر كل ناحية منها وكأني بأجوائها تتنفس ذلك الرضى وتلك الطمأنينة التي انطبعت بها نفوس القوم من سكانها ، وكل ما يمكنك أن تسمعه وسط تلك الأجواء صوت خرير الماء في « خرزتها أو عَيْنِها » .

أناس يتوضؤون ثم ينصرفون إلى « فرش الحجر» أو رحبة باب السـلام ينتـظرون اللحـظة التي تفتـح فيها أبواب الحرم ويؤذن لهم بالدخول ، فحملهم الشوق العارم على أن يسرعوا في خطواتهم ، وما أن يستقر بهم المقام في الروضة حتى تراهم والمصاحف بين أيديهم ، وذكر الله على ألسنتهم ، ودمع سخي ينحدر من مآقيهم ، وهل في الدنيا وجد كذاك الذي ينسكب فيالنفوس فينتقل بها إلى عوالم أكثر إشراقاً وأشد إيناساً وأجمل بهاء ، إنه الوجد الذي يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين فتغتسلُ به من أدران الحياة التي كثيراً ما تحول ظلمتها بين العبد في هذه الدنيا وبين تلك العوالم التي لو عرف الناس ما فيها من نعيم لتقـاتلوا عليه وتنافسوا حوله كما يتقاتلون ويتنافسون حول متطلبات وضرورات الجسد الفاني .

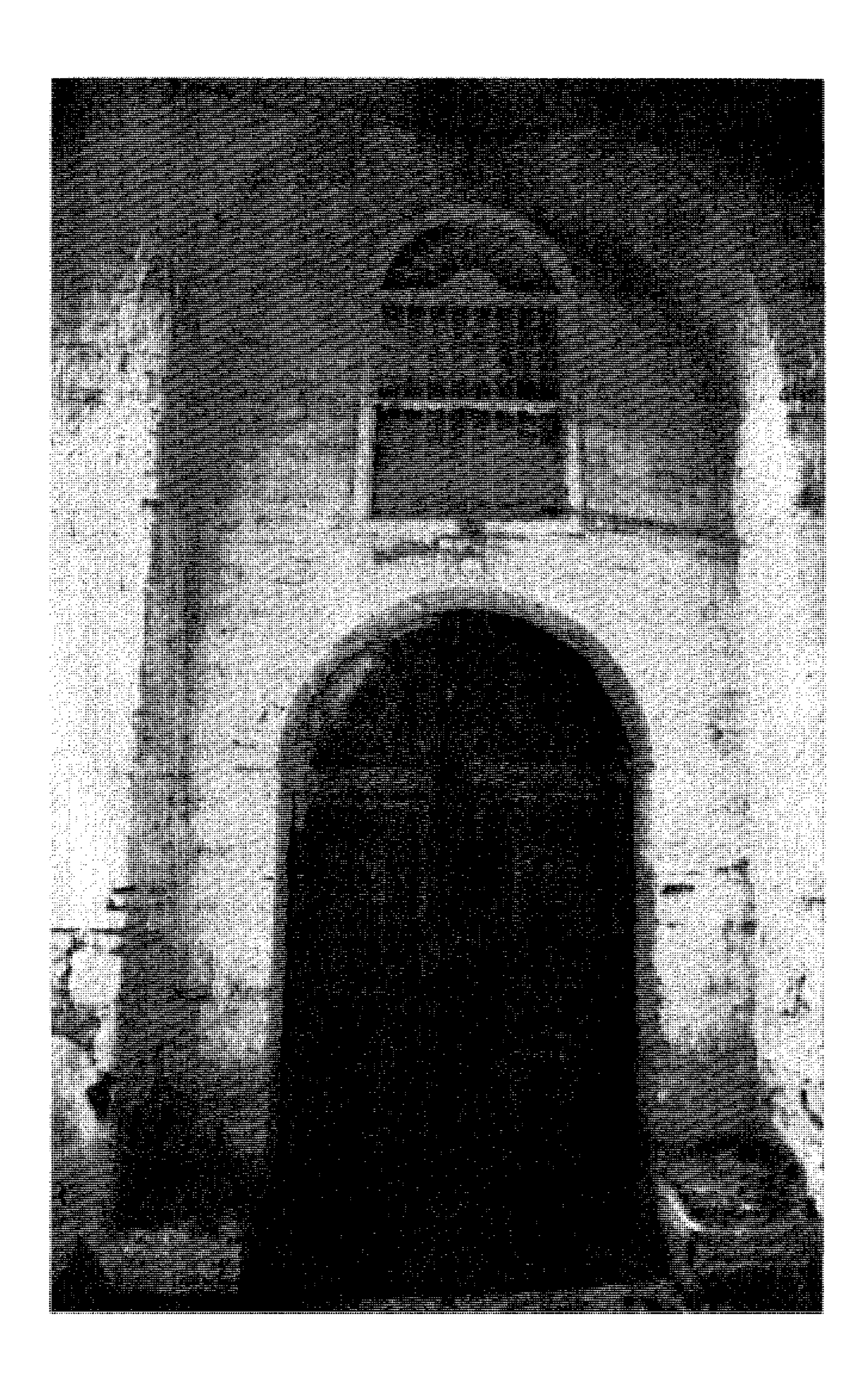
يرتفع أذان الفجر من فوق منائر المسجد ، ولم يكن هناك صوت يبعث على الخشية ويحمـل عليا لتذكر والعبرة كصوت الأستاذ « عبد الستار بخاري » ـ رحمه الله ـ يعرف الناس حفظه لكتاب الله ، وتمكنه من قواعد التجويد ، ومعرفته الدقيقة بمراتب الصوت ومقاماته ، كان « الريس عبدالستار » ـ وهكذا كان يعرف في المدينة بين محبيه وطلابه ـ صاحب قاعدة في الأذان ، وكان زميله الشيخ حسين بخاري ـ رحمه الله ـ أندى صوتاً ، وكان من قوة الصوت التي منحه الله إياها أنه في بعض مناسبات عقود النكاح حيث كانت تلقى قصائد الترحيب ، لا يحتاج في إنشاده للشعر إلى مكبر للصوت ، ولقد سمعته وأنا في مطلع العمر فأذهلني ما كان يتمتع به صوته من قوة ، ولم أسمع أحد بعده وبعد الأستاذ « عبد الستار ـ رحمهما الله من يؤثر في نفوس الناس ذلك التأثير الذي كان يجده كل من استمع إليهما » .

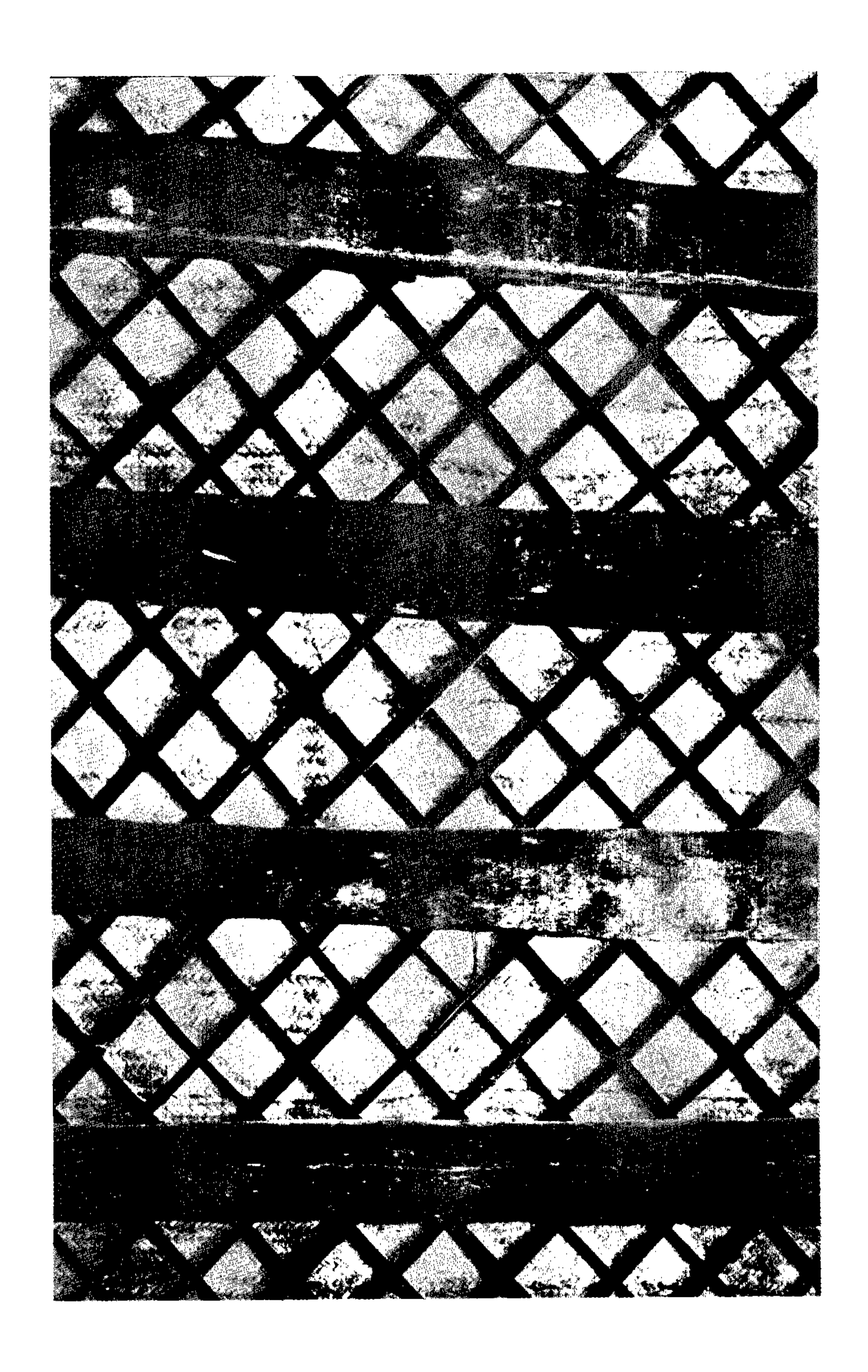
حدثني صديق أن الناس كانت تخرج قبل أذان الفجر وتقف على أبواب الحرم رغبة في سماع المؤذن محمود نعمان رحمه الله الذي توفي في حقبة السبعينات الهجرية ـ ولهذا فأنا لا أعرفه ولم أسمع به إلا بعد مضي زمن على وفـاته ، ولعل هذه الحقيقة تشفع لي عند بعض من أصدقائي الذين إذا ما حدثتهم عن أمر أعرفه من أمورالبلدة الطاهرة أخذهم الظن بأنني أكبر منهم سناً ـ وإن كان لا بأس علي من هذا الوهم الذي يداعبني بشـأنه ثلة من الأصدقاء الكرام ، كان «النّعمان» ثالثاً لعبد الستار وحسين بخاري ـ أسكنهم الله فسيح جناته ـ ومع أنني لا أجد من بين مؤذني اليوم من أخذ بقاعدتي الأخيرين في الأذان إلا أنه يمكن القول أن قاعدة ـ محمود نعمان ـ هي القاعدة التي يسير عليها بعض من مؤذني المسجد النبوي ـ في الوقت الحاضر ـ ولولا خشية الإطالة

لفصلت الأمْـر في تلك القـاعـدة، ولعلهـا مناسبة أشير فيها إلى أن الصـوت الحسن في الأذان مطلب أيدتـه السنة النبوية وذلك عندما اختار النبي ﷺ سيدنا بلالاً ـ رضي الله عنه ـ ليصدع بكلمات الإيمان من هذا المسجد الطاهر لأنه أندى صوتاً من بقية الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين . .

ومحمـود النعـمان هو من أسرة عريقـة تعرف قديماً باسم « بيت الحنبـلي » نسبة إل مذهب الإمام أحمد بن حنبل ـ عليه وعلى بقية الأئمة الكرام رضوان الله ورحمته ـ وكانت في هذه الأسرة مشيخة الأذان لفترة من الزمن حيث تولى الشيخ محمد سعيد نعمان والد الأستاذ عبد الملك المؤذن حالياً بالمسجد شؤون المؤذنين لفترة من الزمن وخلفه في تلك المهمة الشيخ عبد الله رجب رحمه الله ، ولقد صحح الأخ الكريم محمد سعيد أحمد حوالة ـ جزاه الله خيراً ـ معلومة سبق أن ذكرتها عن زقـاق « الحنابلة » فحدد مكانه بأنه كان يقع في الجهة المقابلة لباب الملك سعود ـ رحمه الله ـ ولقد أزيل هذاالزقاق في التوسعة السعودية الأولى للمسجـد النبوي كما أكد لي ذلك الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه ـ رحمه الله ـ ولقد كان بعض من أسرة « آل النعمان » يسكن في ذلك المكان ، وكنت استفسرت من الصديق الشاعر الأستاذ خالد النعمان عن رجـل منم آل النعمان اسمه « محمد علي » عرف بجمال الصَّوْت وكريم المعشر قبل ما يزيد عن نصف قرن ، فلقد سمعت قبل ما يقـرب من عقـدين من الزمن رجلين يتحدثان عنه وهما عبد الستار بخاري وحمزة مقليه ـ رحمهما الله ـ كان ذلك في « سويقة » وفي يوم أغر من أيام البقعة التي طابت بحلول سيد الخلق فيها عليه صلوات الله وسلامه .

وهـذه مناسبـة مواتية للقول بأنه كان ينتدب لأداء هذه المهنة الشريفة الصفوة من الناس سلوكاً وخلقاً ، وتفتخر تلك الأسر بتنشئة أبنـائهـا على أدائـه ، ولعـل إدارة الحـرمـين الشريفين تسعى برعاية المسؤولين الكرام فيها للحفاظ على هذه المؤسسة المتجذرة في التاريخ الذي هو جزء هام وثمين من تاريخ هذا الدين العظيم وآدابه السامية .





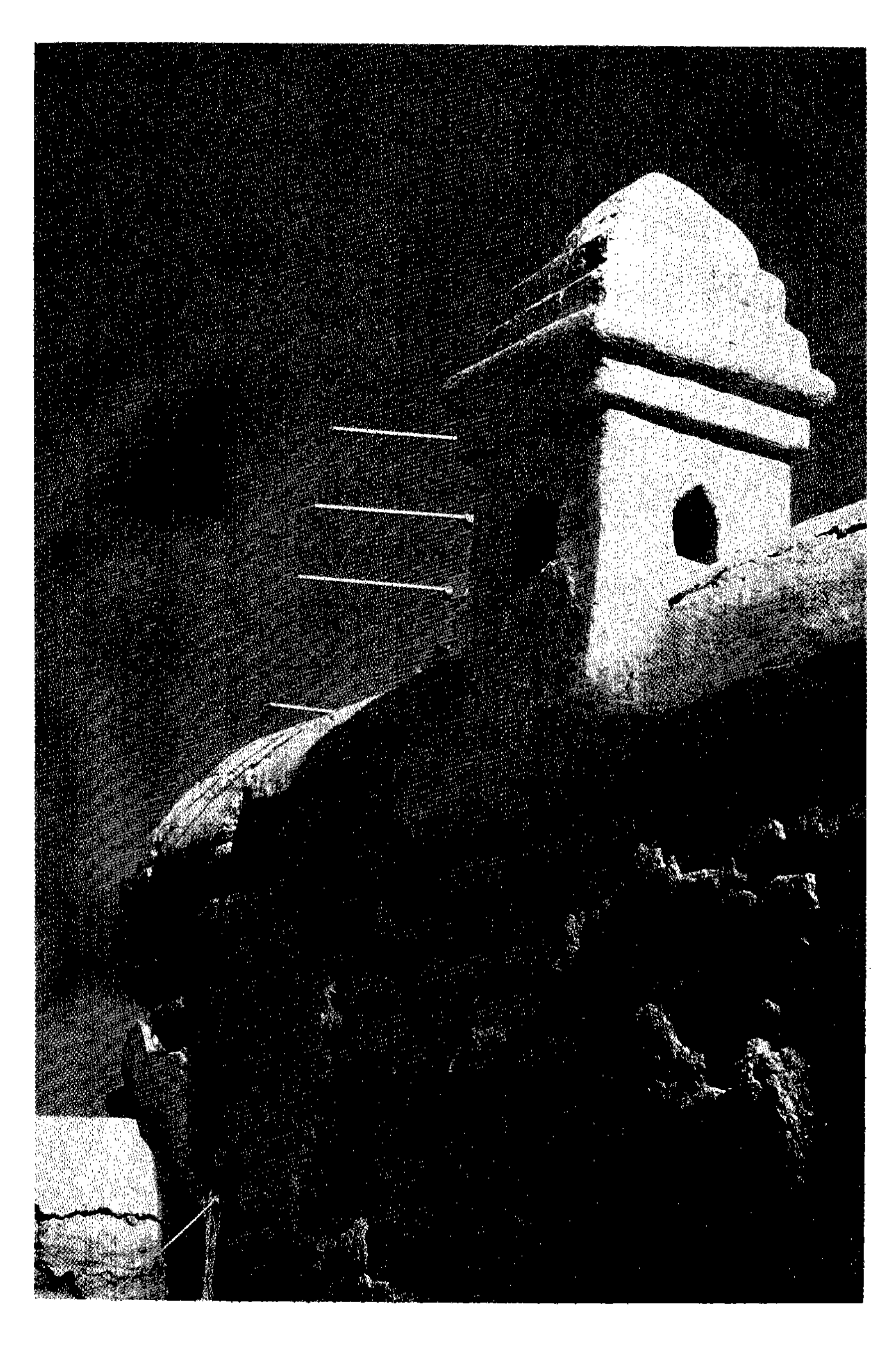
(٧)

في الليل الذي تنوءُ بي همومه ، وتثقل على نفسي الخواطر فيه ، لكم تسللت إلى الحارة والفجر لم يطلع بعد نوره ، أطرق طرقات خفيفة على باب الـدار العتيق فالـدور متقاربة وأخشى أن يوقظ األالاخرين وقع أقـدامي يأتيني صوتك من سطح الدار الذي تتقاسم مساحته أنت وبقية أفراد بيتك وعجوز تجاوزت الثمانين من العمر أعطاها حب الله وحب رسوله ﷺ من النور ما لا يكاد يخفى على الناظرين إليها ، تشد عمامتك البيضاء على رأسك وتقابلني عند عتبة الدار فلا أجد في ملامح وجهك غضاضة بل أنت فرح بقدومي ، متهيىء لصحبتي ، تشقُّ طريقنـا في الشـارع الـذي يفصـل البقيع عن الحـارة وكـان شقهاالملاصق للحارة ممهداً والآخر المجاور « للمقبرة » مسفلتاً ، ويقوم في أوله من جهة « باب العوالي » مرتفع كبير يقع في وسطه قبر أحد صحـابـة رسـول الله ﷺ وإذا ما أخذت خطواتنا تقترب من نهايته الموصلة إلى مدخل الحارة من جهة البقيع كنا نلمح رجلاً يميل سلوكه إل العزلة فهو لا يتحدث إلى أحد ولكن طيبة قلبه تجد لها دليلاً في ملامح وجهه ، ولكأني به اغتني بصحبة الخالق عن صحبة الخلق ، إنه « عم قونيه » يجلس على حافة الشارع إذا ما أوصدت أبواب الحرم وانصرف الناس إلى دورهم ، كما تلمحه هناك إذا ما أشرقت الشمس بنورها على سماء البلدة الطاهرة يريدها نوراً ذلك الألق الذي ينبعث من قبة المسجد ومنارته .

أحدثك وأنت تصغي إلي ، أشكو إليك من الهموم ما لا يَسُرُّ الإنسان به إلى صديق ، تدير حبات مسبحتك اسمع كلمات الذكر تنطلق من بين شفتيك فتطمئن نفسي ويعود إليها سكونها ثم تقول كأنك تجيب على شكواي « يفرجها الله » وأحياناً تختصر القول كله في عبارة واحدة « مفروجة » ندخل البقيع وقد انفتحت أبوابه بعد صلاة الفجر ، توجه الحديث لي قائلاً : تلك يا بني دورنا وهذه قبورنا !! ألم يكن أصحاب هذه القبور أشد حرصاً منا على الدنيا ، ولكن أين هم اليوم ؟ تستقر كلماتك في أعماق نفسي ، وهي اليوم على بعد الزمن تستدر دموعي ، وهي دموع النازح عن أرض الحبيب المتشوق إلى أفياء الرحمة والرضوان التي خصها الله بها .

تسير بي في طريق متعرج خلف جدار البقيع ، دور متهدمة ، وأخرى قائمة ، وبقايا من نخيل تلوح لنا جذوعه كلما توغلنا في طريقنا إلى دار صديقنا « معاذ » وفي فضاء تلك الدار أو ربما بالقرب منه تقوم بئر يستقي منها الناس ، يصنع لنا الأخ في الله كأساً من الشاي ويقدم لنا كسرة من الخبز مصنوعة من الشعير يقول مبتسماً هذا طعام المساكين ، نفرح بما يقدم نأكله كأننا لم نأكل من قبل ، ثم نتناقش في أمور كثيرة وربما احتددنا في النقاش ، وكثيراً ما كانت كلمة الفصل تأتي من صاحب الدار فهو طالب علم وكثيراً ما يتردد على حلقة الشيخ محمد المختار ـ رحمه الله ـ التي كانت تقوم في وسط المسجد ، أو على حلقة الشيخ محمد المنتصر الكتاني التي لا تبعد كثيراً عن حدود الروضة .

لا زلت أذكر إذا ما آويت إلى دارك بعد صلاة العشاء وكانت أزقة الحارة تضاء بالأتاريك والناس يأوون إلى الدور فيها مبكرين ما زلت



سطح منزل « الزَّين » ويَبْدُو على سَطْح المنزل المجاور والمرتفع قليلاً البناءُ الذي كان يعرف في أعْلَى دور المدينة القديمة باسم « الطَّيرمة »

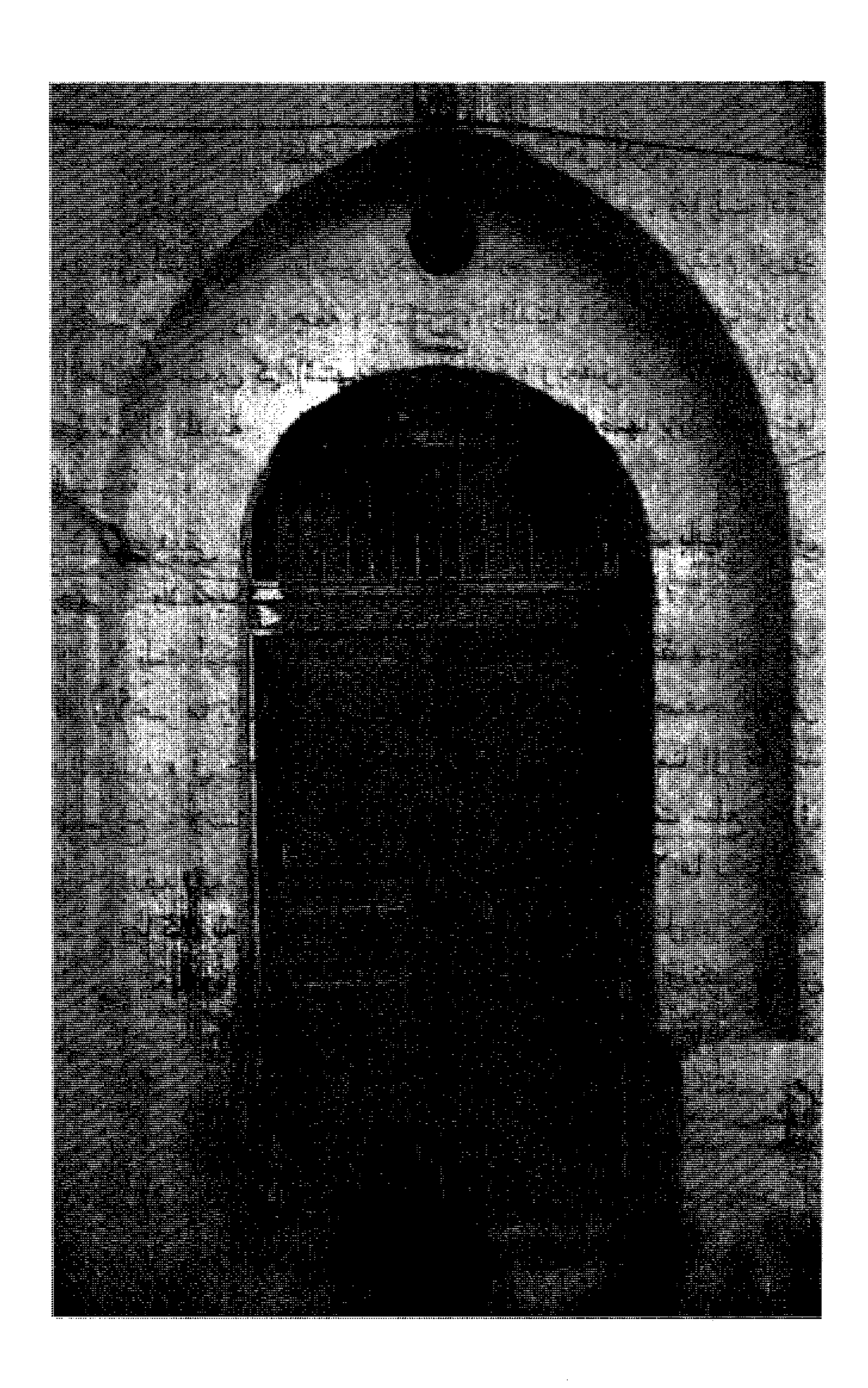
أذكـر رجـلاً طويل القامة ممتلىء الجسم من أهل إفريقيا يسلم على الناس في دورهم ثم يقدم لهم ، علبة من عود الثقاب ، وما زلت أذكر رجلاً من المجاورين ـ والذين يكثرون التردد على الحارة ـ يقدم الورود في صبـاح كل يوم « جمعة » للناس ، والمدينة تشتهر بساتينها بالورد والفعل والياسمين كما اشتهرت « بالفاغية » وبعض من الشعر الذي كتبه شعراء المدينة . . لا يخلو من ذكر ما عرفت أرضها بزراعته وتربتها باستنباته .

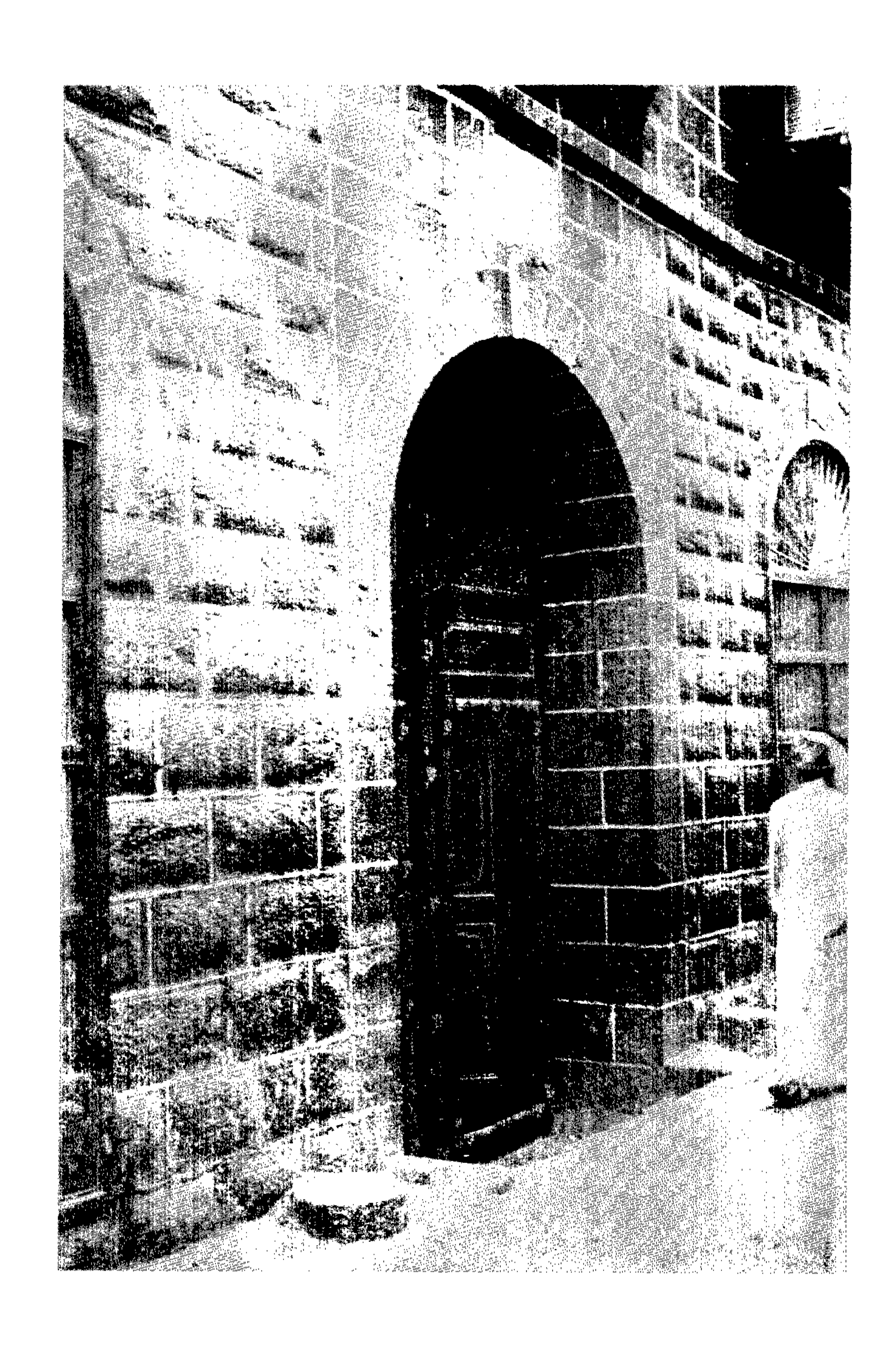
يا صديقي الذي لم تدر وجهك عني يوماً ولا أغلقت باب دارك في وجهي ، ولا تبرمت من ترددادي عليك .

لا زلت أذكر ليالي الصفا مع أحباب لنا انتقل بعضهم إلى رحمة الله والآخـر ما زال باقياً في دار الفنـاء ، فلكم قرأنـا صفحـات من « الشفـاء » في حصـوة الحـرم ، ولكم سرنـا على أقدمنا إلى مسجد المسـتراح ، وبستان « المصرع » ولكم ضمنا في جنبات سلع ، وفي التـاجوري وفي زقاق الطِوال مجلس لا نسمع فيه إلا ما يرضي الله عنا ، وما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل ، من ذلك الماضي البعيد «يا زين» يأتيني صوت الحادي ، يحرك في أعماق نفسي كوامن الشوق ، ويحلق بها في عوالم الصفاء الأبدي ، إنك مثلي كثيراً ما سمعت :

فراق أحبتي كالصبر مرا ... وأشعل حبهم في القلب جمرا
نحلت لبعدهم والليل أدرى ... أقول لنسمة هبت سحيرا
فما حال الأحبة خبريني

فإن كانوا نسوا ما كان عندي ... ولم يتذكَّروا عهدي وودي
وغيري واصلوا وتركت وحدي ... أقاسي لوعتي ، والوجد وجدي
فعند ديارهم تلك اذكريني





رباط الميمن بحارة الأغوات والذي كان يَصِلُ إليه قاصدُهُ عن طريق ساحة باب السَّلام

(٨)

كنت توقفت قليلاً في الحلقة السادسة من هذا الموضوع عند بعض الشخصيات التي عرفت بصوتها الحسن وأدائها المتميز . فكان من هذه الشخصيات مؤذنون وكان منهم منشدون ، ولكن هناك ظاهرة ارتبطت بحياة بعض هذه الشخصيات ، وأعني بها ظاهرة النزوح عن المدينة ثم العودة إليها بعد حقبة من الزمن ، ولعل الظروف التي مر بها المجتمع المدني قبل أن يصبح هذا لمجتمع جزءاً من مجتمع الجزيرة العربية الذي أراد الله له أن يتوحد على يد المغفور له جلالة الملك عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ـ وكان من آثار ذلك تلك المظاهرة الإيجابية المتمثلة في نشر الأمن . ونبذ الخلاف ، والمساواة بين الناس ، أقول إن تلك المظاهر كانت في تلك العصور الماضية سبباً وراء نزوح أهل المدينة وكان من بين هؤلاء النازحين حفظة لكتاب الله ومؤذنون في مسجد رسول الله ﷺ وأدباء عرفوا بإبداعاتهم الشعرية المتميزة .

« إبراهيم محمد زين سمان » ـ رحمه الله ـ كان واحداً من المؤذنين الذين نزحوا إلى بلاد الشام وأقام بها فترة طويلة ثم عاد إلى المدينة في حقبة الثمانينات الهجرية ، ولقد أدركته ـ رحمه الله ـ بعد عودته إليها ، وكان ذا هيئة حسنة « جبة بيضاء وعمامة أقرب في شكلها إلى تلك التي كان يلبسها العلماء » ، وكان صوته يحمل بقية من تلك الطلاوة التي اشتهر بها في المجتمع المدني، كما أن الكتاب الذي طبعه من بعده ابنه

ـ أحمد السمان ـ رحمه الله ـ وجمع فيه عدداً من القصائد والمقطوعات الشعرية ، يدل على أن عدداً من أفراد هذه الأسرة الكريمة عني بالشعر وروايته وإنشاده . .

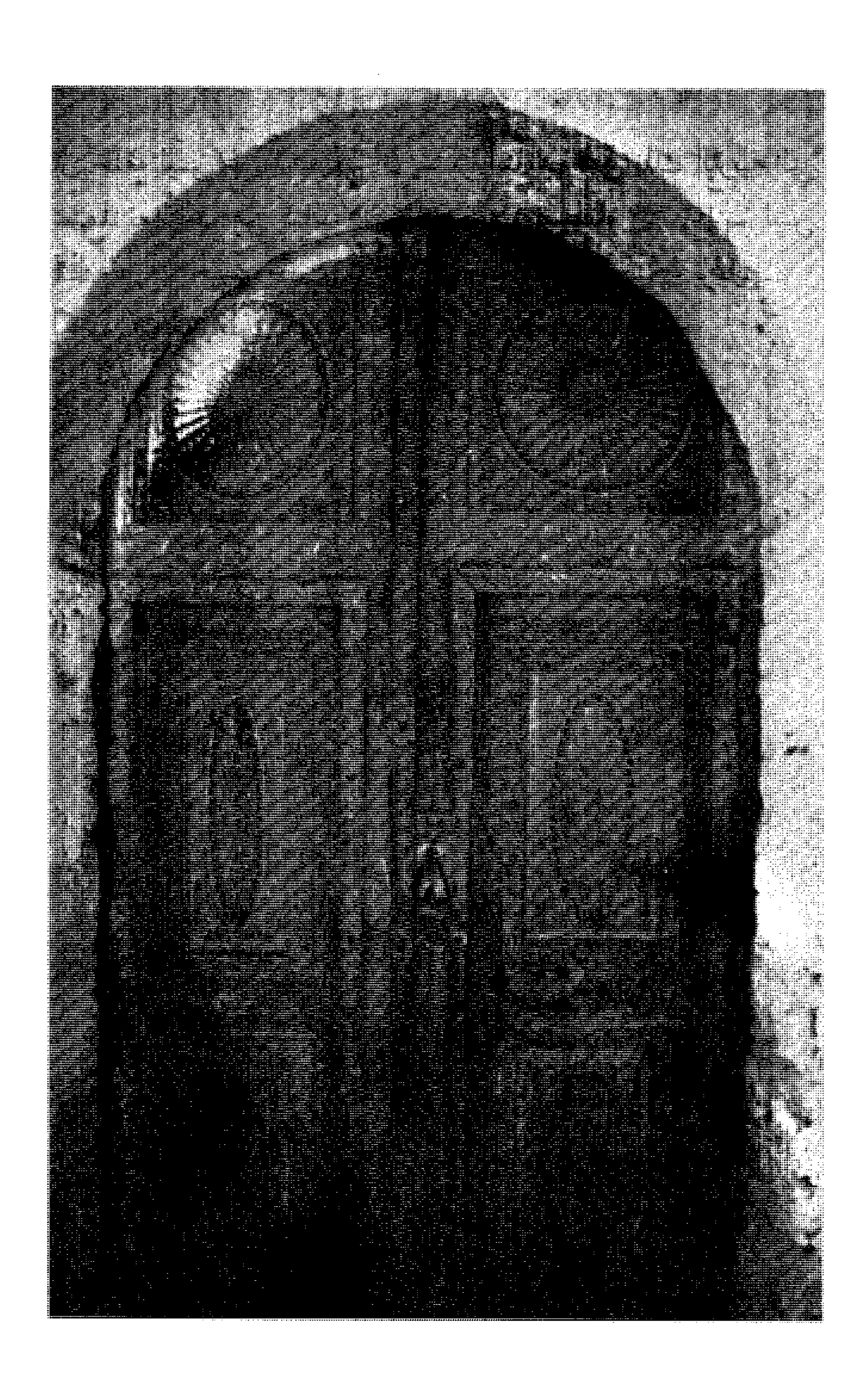
وإذا كان إبـراهيم السـمان اتخذ من بلاد الشام مسكناً له بعد خروجه من المدينة فإن ثمة نفراً من مؤذني المسجد أقاموا بأرض « جاوا » ومنهم أبو بكر خوج والأستاذ عبد الستار بخارى ـ رحمهما الله ـ ولكنهم عادوا جميعاً إلى المدينة ، عرف الخوج بمواظبته الدائمة على أداء الأذان وخصوصاً الأذان الأول في صلاة الفجر ، يجلس ـ رحمه الله ـ مع عدد من المؤذنين في مؤخرة المسجد ، يضبطون ساعاتهم ، ويتهيأون لصعود المنـائر التي يصدحون من فوقها بكلمات التوحيد والإيمان ، في تلك البقعة كثيراً ما رأيت أصدقاء الخوج الذي قليلاً ما كان يخلع عباءته من فوق كتفيه ، رأيتهم يمازحونه ويداعبونه بكلماتهم ، وهو مزاح لا يخرجهم عن وقـارهم وأدبهم الـذي تعكسه وجوههم النيرة وهيئاتهم الحسنة ، وإني لأتذكر صديقين له يحبانه ويحبهم ـ في الله ـ وهما إبراهيم شيرة ، وبكر عبد الجواد ـ رحمهم الله جميعاً ـ وكان يجلس غير بعيد من القوم رجل تقوم بينه وبين المسجد صلة قوية وألفة دائمة وهو المرحوم ـ سـليمان عبده .

أمـا الأستاذ : عبد الستار الذي كان يتميز بين زملائه بحفظه لكتاب الله ومعرفته المتعمقة باللغة العربية في أصول كلماتها ونحوها وصرفهـا ، وروايته لتلك الإبداعات الشعرية التي فاضت بها قرائح بعض شعراء المدينة الذين عرفوا بإجادتهم لفن القول إجادة لا تقل عن تلك التي وجدت عند نظرائهم من شعراء العالم العربي ، وهم عبد الجليل برادة وإبراهيم الأسكوبي ، وأنور عشقي ، ومحمد العمري ،

حياة الأستاذ عبد الستار ونشاطه لم يقتصرا على بلاد «جاوا» وحدها فلقد عاش فترة من حياته في مكة المكرمة ، حيث كان على صلة قوية بالشيخ عباس قطان ـ رحمه الله ـ أحد وجهاء مكة المعروفين ـ ولعل تلك الصلة دفعته إلى الإقامة بمكة ، ولقدأخبرني الشيخ المفضال ـ عبد الله بصنوي ـ رحمه الله ـ والذي عاصر عدداً كبيراً من مؤذني المسجدين الشريفين ـ أن الأستاذ عبد الستار ، كان يؤذن بين الحين والآخر إبان إقامته بمكة ، وأظنه عاد إلى المدينة في بداية الستينيات الهجرية ، فلقد سمعته يوماً يقول : قابلني أحدهم عند وصولي إلى المدينة وأخبرني بوفاة السيد / عبد الرزاق نجدي ـ رحمه الله ـ ، وهذا الأخير كان من أشهر مؤذني المسجد ، وأتصور أنه أكبر سناً من الأستاذ/ عبد الستار ومن هم في طبقته من المؤذنين ، ولقد أدركت شخصياً السيد حسين نجدي ـ رحمه الله ـ الذي كان صاحب صوت متميز ولكنه ترك الأذان في آخر حياته . . .

عندما يرتفع صوت « أسعد نجدي » من فوق منائر المسجد الشريف فإنك سوف تشعر بتلك النفحات التي تلامس أدق مواضع النفس الإنسانية ، ويتفاعل مع ذلك الصوت الندي الوجدان الخالص الذي فطر الله الإنسان عليه ، وهو نفس الشعور الذي أحسسته عندما سمعت لأول مرة صوت المؤذن الشهير ـ عبد العزيز بخاري ـ وكان لم يستقر بعد في المدينة ، وكانت النفس تتجاوب مع صوت الشاب وتسبح في أجواء يظللها الرضوان وتحوطها السكينة ، ورأيت يومها الناس يسرقون النظر إلى صاحب هذا الصوت وهو يخرج من منارة « الشّكيلية » ممسكاً مفتاح المنارة بيده ، ولم يكن غريباً على الأجداد والآباء من مؤذني مسجد رسول الله وخليله الذي اصطفاه من

بين خلقه ليس غريباً عليهم أن ينشئوا أبناءهم على تلك التربية التي تستمد تعاليمها من كتاب الله وسنة نبيه ومصطفاه ﷺ ، إنهم ليس فقط جيران الحبيب الذي أوْصَى في أحاديثه الصحيحة برعايتهم ، ولكنهم كذلك أطول الناس أعناقاً في يوم الزحف الأكبر .





(٩)

سعدت جداً بمتابعة الأستاذين الكريمين أحمد محمد جمال واللواء الشـاعـر علي زين العـابدين للحلقات المنشورة على صفحات هذا الملحق الأغر عن بعض مناحي الحياة الاجتماعية في بلدة الرسول ﷺ وقالا : إنهما ينتقلان من خلال تلك القراءة إلى عقود مضت يتذكران فيها المواضع التي نشأا فيها » ولا شك أن الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة تشكل إغراء كبيراً لكاتبين يحمل كل منهما نفساً شاعرة قادرة على التصوير متمكنة من أدوات التعبير الفني كما هو ملاحظ في إبداعاتهما التي أثريا بها فنون الأدب في بلادنا الكريمة وما يزالان ـ حفظهما الله ـ يمتعان عشاق الكلمة بذلك الحس الصادق والمتمثل في العديد من المشاركات الفكرية والأدبية . .

ولقد عشت من عمري أوقاتاً ممتعة في رحاب مكة المكرمة أتنقل فيها بين جبـل الكعبة في حارة الباب . وبرحة القطَّان في الشامية والدَّحلة وشعب عامر وزبيدة في العتيبية ، عرفت فيها دور العلماء من جيران بيت الله ، أتمـلى وجـوههم النـيرة فتقـر عيني ، وأستمع إلى أحاديثهم فتستقر الكلمات منهم في أعماق نفسي . أي در الذي ينثرونه على الإسماع وأي وعظ ذلك الذي يستلهمون فيه حياة السلف الصالح من هذه الأمة . . وأي فقه ذلك الذي يتحرجون فيه من القول بكتاب الله بغير علم . . كأنهم في هذا يتمثلون خطى رفيق المصطفى ﷺ

وصديقه سيدنا أبي بكر الصديق . . رضي الله عنه . . الذي يقول « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله بغير علم » وأي سكينة تلك التي تظل مجالسهم في « الصحن » وأي عبق ذلك الذي يفوح عندما ينقلون خطاهم بين « الحجر » وعتبة باب السلام قوم لا تعرف الشح أيديهم . وتنبسط موائدهم لطلاب العلم . . لا يفرقون في ذلك بين مقيم وقادم وصغير وكبير . .

لقد شربت ـ يا أساتذتي ـ الماء قراحاً من أيديهم ، وتلقيت أحاديث المصطفى ﷺ رواية ودراية في حلقاتهم ، ولكن أفاضوا علي من عطفهم ، فإذا الغربة تذهب وحشتها والبعد عن ديار الأهل في « طيبة » ينمحي الإحساس به . ولنْ يضير النفس ـ اليوم ـ بعد أن ترعرعت بحبهم أن تعبر والقلب بعد أن عايش أنسهم أن يتحدث والمشاعر بعد أن تغذت من كريم أخلاقهم أن تصرح .

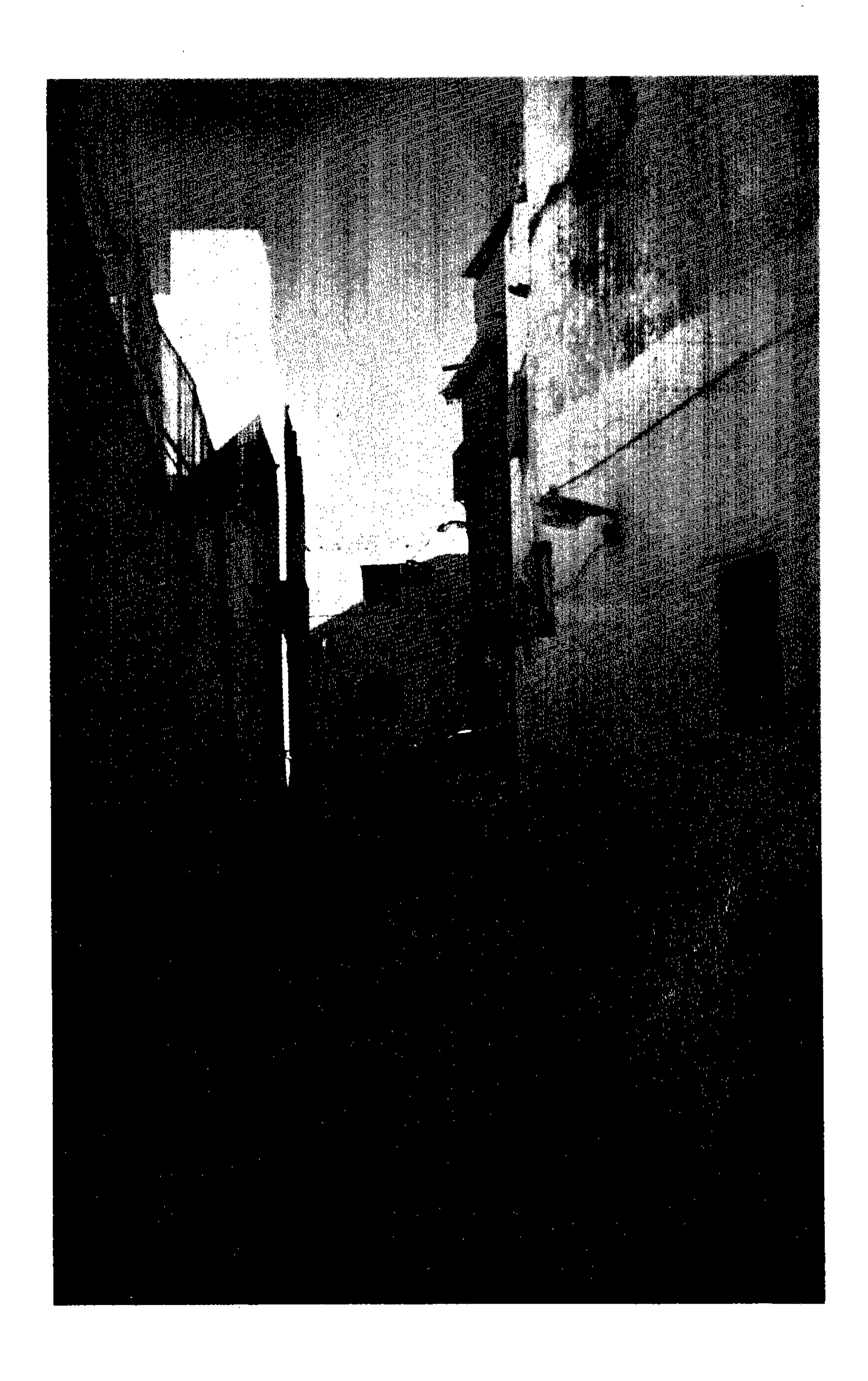
وعندما ذهبت لأتعرف على وجوه القوم في البلد الكريم وإحيائه فإذا أنا برجل لا يغريه طول قامته بأن يتطاول على الآخرين . . ولا يبعد شموخه الذي فطر عليه عن عامة الناس الذين يجدون في كريم عطائه ونبل أخلاقه ما يحملهم على طرق بابه وندب فَضْله . . إذا برجل يحلم عندما يتجسد على ملامح الناس الغضب فلا يجدون سبيلاً إلى كتمانه ، ويبتسم عندما يظن الآخرون أن نوازل الدهر سوف تحول بينه وبين فقدان ذلك الصفاء الذي لا يحل إلا في نفوس امتلأت بمعرفة الله وانصقلت بمحبته وسارعت إلى رضائه . .

إذا أنا برجل يرتفع صوته في « المقام » مؤذناً والناس نيام . ويجلس بينهم متحدثاً في ضحى النهار فإذا الصوت منه خفيض ، والحديث

منه مهذب ، والقول منه مفيد ، إذا أنا برجل في ساعة الشدائد يخشى بأسه أولئك الذين تغريهم نفوسهم بالتعدي على الآخرين ومع هذا فقد سمعته يوماً يقول : الشجاع من يضبط نفسه في لحظة الغضب . .

لقد حللت - يا أساتذتي - في حي الشامية فإذا فيه قوم يحبون النزيل ويكرمون الضيف . وكان على رأس هؤلاء القوم الكرام هو من تحدثت عن صفاته - آنفاً - فضيلة الشيخ عبد الله محمد بصنوي - رحمه الله - ويعلم الله أنني لم أتزيد في قول . ولم أبالغ في وصف ، ولكنني ذكرت بعضاً مما أعرف ويسيراً مما شاهدت وإنه لن يكون غريباً على القوم الذين ولد في أرضهم سيد الخلق عليه صلوات الله وسلامه - وتتنزل الرحمات بين دورهم وتنفتح العيون منهم كل صباح عَلَى مشهد هو خير من الدنيا وما فيها مشهد بيت الله المعظم ، لن يكون غريباً عليهم أن يجودوا في غير سفه ، وأن يعطوا بغير منة ، وأن تتنزه منهم النفوس عن ضمائر السوء والألسن عن فاحش القول فطوبى لمن عرف وهنيئاً لمن ذاق ، ومن ذاق عرف . .





(١٠)

ولكم أتيتُ الحـارة ضحى فإذا النـاس يشربـون الشاي معطراً « بالنعنـاع » في مقهى المعلم طيفور ، أو في الرحبة التي تقوم أمامه أنصت السمع لأحاديث الكبار من القوم يتذكرون ماضياً تصرم عهده وانقضت أيامه ، وتلوح لهم الذكريات فيبتسمون وربما ترتقرق الدمع في أعينهم على حبيب فقدوه أو صديق سبقهم إلى الدار الأخرى ، وكـان أكثـر ما يشـدني إلى القـوم ذلـك الصفـاء الذي انطبعت به نفوسهم ، أهو وليد الحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها ؟ أم أنهم نشأوا هكذا لا يعرفون خداعاً يفسد الحياة ويشوه فطرتها ، ولا يميلون إلى كذب وادعاء يمجه الذوق وتأباه الطبيعة السليمة ؟

وكما بلوت القوم في الحارة على هذا الضرب من الخلق الرفيع ، فلقد كنت أتسلل إلى مجلس والدي خلسة لأستمتع بأحاديث الصفوة من أصدقائه وأقول خلسة لأن للمجالس في بلد الرسول ﷺ تقاليد يرعاها الكبار ولا يخرج عن آدابها الصغار ، فصدور المجالس لا يحل فيها إلا كبار السن ، وحديثو السن من الشباب لا يرفعون صوتاً ولا يقاطعون كبيراً في حديثه ، بل ويمعن البعض في تلك التقاليد فشرب القهـوة من قبل الصغار في مجلس يؤمه الضيوف أمر غير مستحسن ويحث الآباء أبناءهم على تجنبه .

نعم لقـد كنت أتسلل إلى مجلسهم فإذا رأوني ابتسمـوا . في

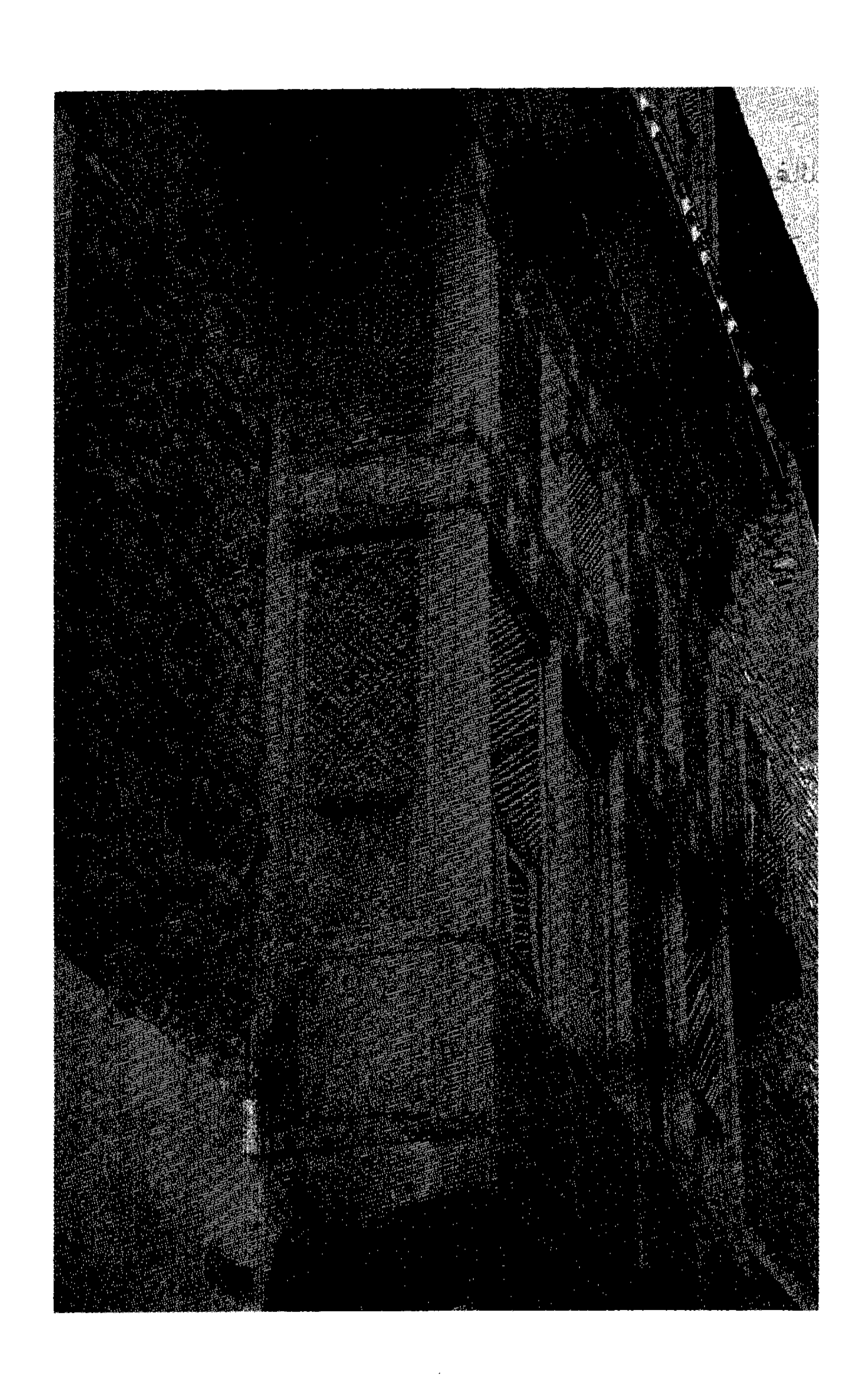
نظراتهم حنان ولحديثهم طلاوة كثيراً ما كانت تشدني ، فما أسمعه منهم لا أجده في بطون الكتب ، وأفتقده بين لداتي من الشباب ، وتتشعب أحاديثهم وتتعدد موضوعاتها ، ولكني لم أرهم حريصين كحرصهم على البعد عن ذم الناس أحياء كانوا أو أمواتاً ، إنهم ليغضبون أشد الغضب إذا ما حل عليهم أحد من خارج جماعتهم وأراد أن ينال من الناس في أنسابهم أو يلوك لسانه في خصوصياتهم ولعلِّي لا أبالغ إذا ما قلتُ إنهم صراحة كانوا يطلبون منه الانصلوف عنهم والابتعاد عن مجالسهم ، وأرجع إلى نفسي أحدثها . . أين أولئك القمم من أقوام لا يتورعون عن النيل من أناس ربما كانوا خيراً منهم سلوكاً ، وأحسن خلقاً ، وأنقى سريرة ، نعم لقد كان الحديث في أنساب الناس عند رجال عرفتهم يؤمنون دارنا أو نؤم دورهم سجية تهبط بأصحابها في ميزان الرجال وأعرافهم ، وإن الفطرة في هذا الأمر لتتلاقى مع قواعد الشرع الحنيف الذي يأمرنا بحبس ألسنتنا عن قول السوء والتجني على الآخرين .

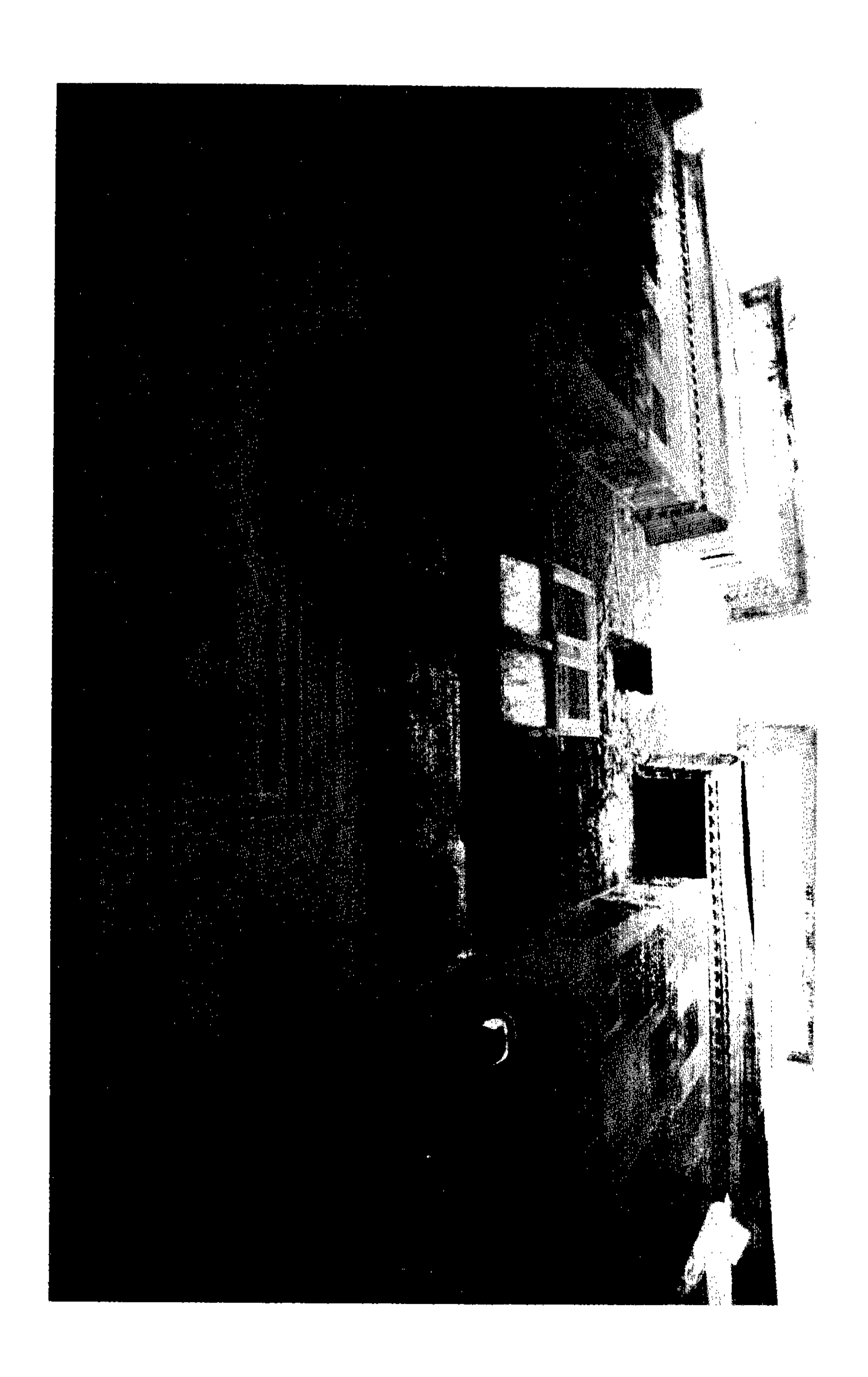
كثيراً ما تردد على سمعي هذا البيت من الشعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً * يغنيك محموده عن النسب

لقد سمعته كثيراً ولكن المرة الأولى التي بلغ فيها مسمعي كان جملة من كلمات لوالدي ـ أبقاه الله ـ يخاطبني بها . والذي إذا ما حدثني أشار إلي بيده كأنه يحذرني من التفاخر بما تعده أحاديث الرسول ﷺ جاهلية ممقوتة وعصبية مذمومة ، ثم يردف القول مستشهداً بقول المصطفى ﷺ وشفيع الناس في يوم الزحف الأكبر : « سلمان منا آل البيت » .

الجوار صنع في نفوسهم الحب ، وبرأها من ظلمة الحقد وغائلة الكراهية ، والهجرة جعلتهم يعيشون آداب الإسلام عن إيمان ، ويتمثلون قيمه فيما يأتون من سلوك أو يقدمون عليه من عمل ، وحب سيد الخلق ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ أوجد في نفوسهم رقة ، إذا نظرت في وجوههم خلتهم أسوداً ، وإذا دنوت منهم وذكرتهم فسوف تجيبك منهم أعين تفيض بالدمع ، والسنة تلهج بالذكر ، وقلوب لا تعرف الذل والانكسار إلا لبارئها فرحم الله منهم من ذهب وبارك في من بقي ، وهدانا الله سواء السبيل .





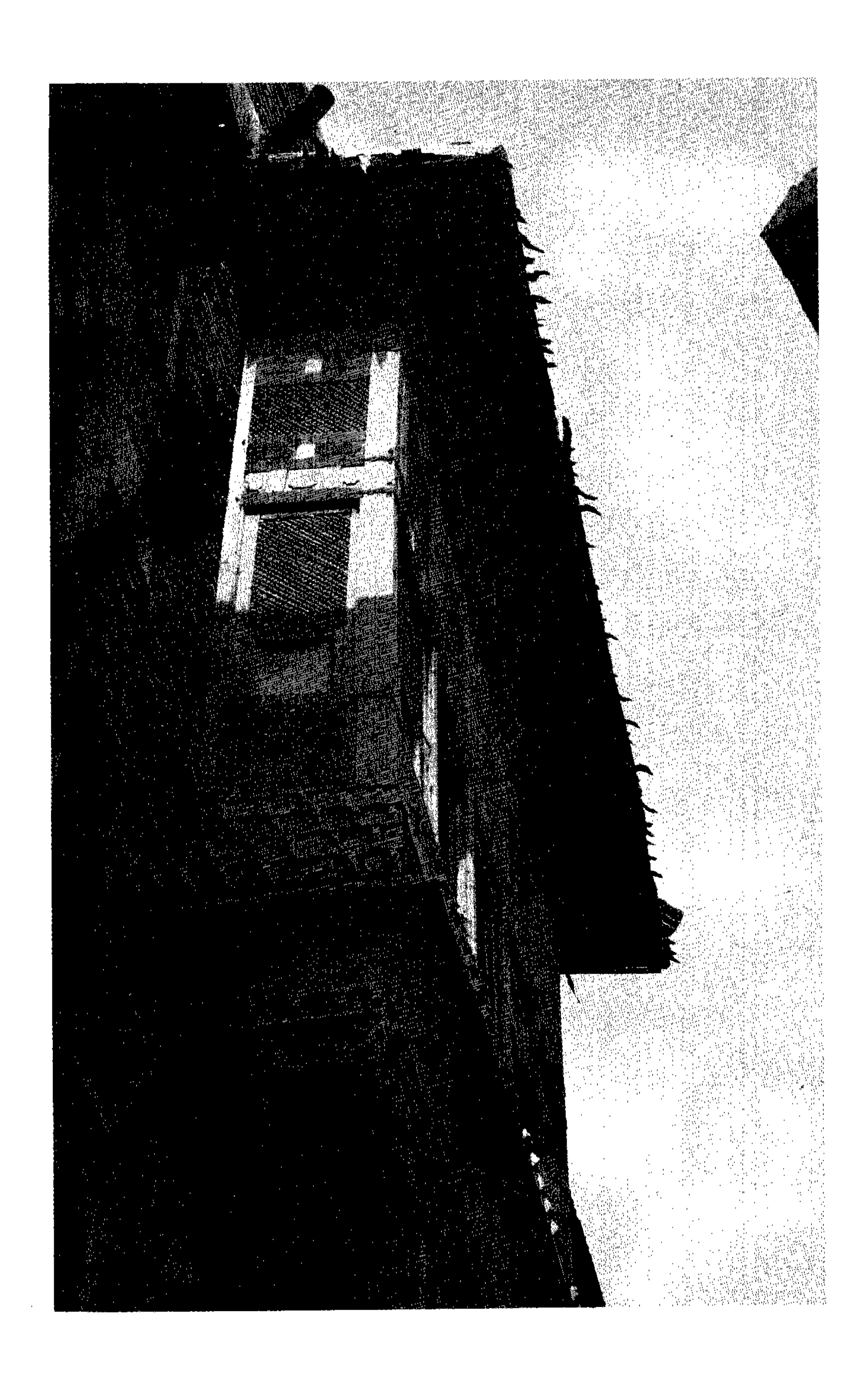
(١١)

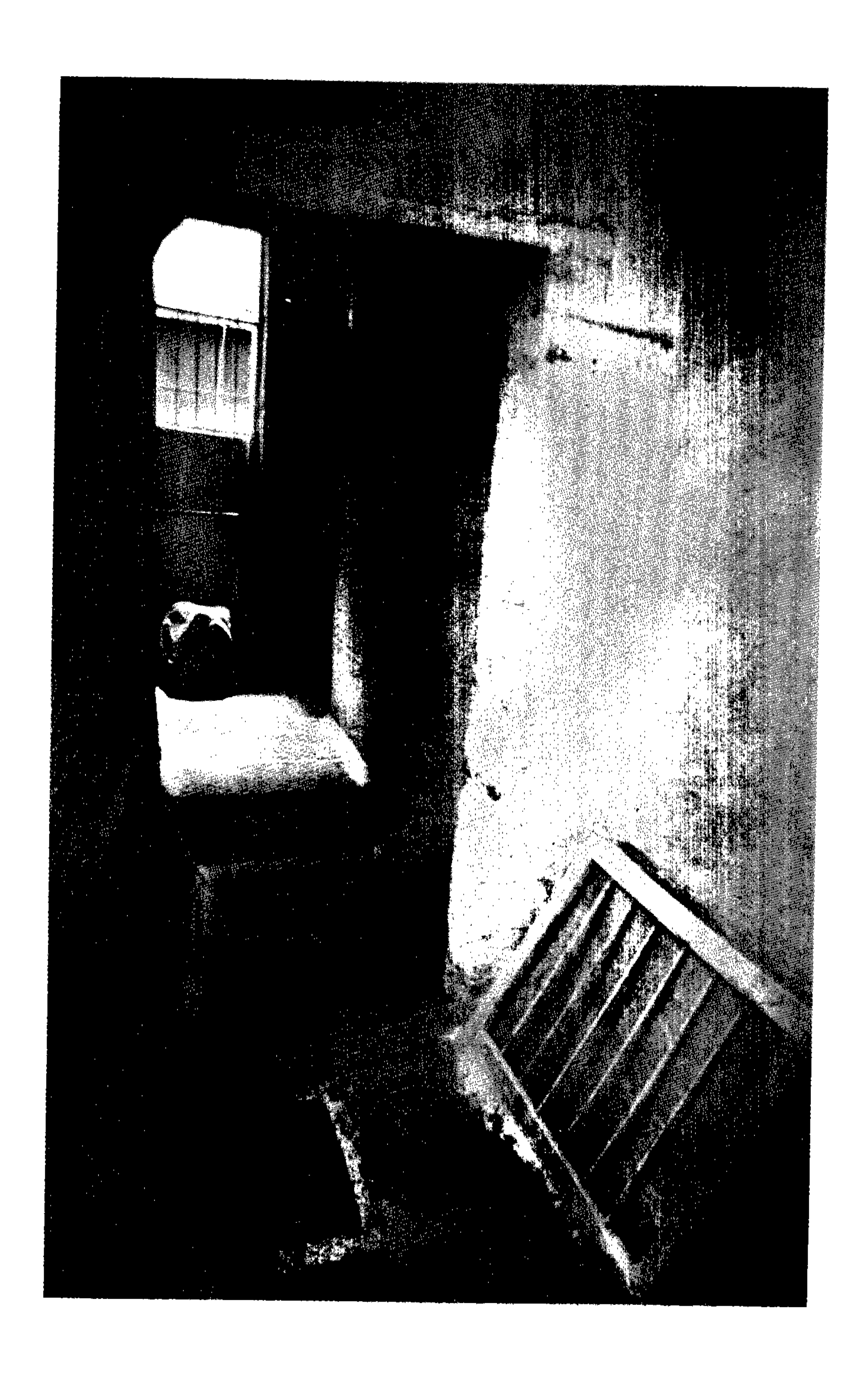
إذا ما أمطرت السماء في بلد رسول الله ﷺ انغسلت معها النفوس وتـطهرت القلوب وما أكثر أدران الحياة وما أضعف هذه النفوس في مواجهـة نعيم الدنيا وإغراءاتها يهرع الناس إلى الحرم يمتعون النظر بمرأى القبة الخضراء الحاضنة للرحمة المهداة للعالمين وهي تستقبل رحمة السماء ينسكب الماء من كل ميزاب في الحرم يلامس ذرات الأرض التي يعفر الناس فيها وجوههم من جميع أطراف الدنيا لخالقهم وليس في المـدينة موضع إلا ويشهد بوحدانية الله وليس بين أحيائها موقع إلا وتنقلت فيه خطوات سيد الخلق عليه صلوات الله وسلامه أو اجتمع فيه صحابته رضوان الله عليهم أو زار فيه مريضاً أو شيَّعَ فيه ميتاً .

لن نستكثر على بعض سلف هذه الأمة حبهم لتلك الأرض ليس للأرض ذاتها فلقد كانت قبل حلوله فيها موئلاً للحمى وتحولت بعد هجرته إليها مصدراً للنور لن نستكثر عليهم هيامهم بآثارها فالآثار قبله كانت آطاماً يتقاتل من فوقها الناس وبعده أضحت مساجداً ترتفع من فوق مآذنها كلمات الحق التي أمـره الله أن يصـدع بها ولئن افتخرت الحضارات الأخرى بملاحمها في ميادين الكر والفر فأرض المدينة تروي ملاحم الحب الذي صنعه سيد العرب عليه أفضل الصلاة والتسليم بسجاياه العظيمة . . ألم يؤلف قلوباً كانت متنافرة ويقضي على ثارات كانت متأججة ويوحد جموعاً كانت متفرقة ، جمع الله له السلاح والمعجزة

في شيء واحد لقد كانت المعجزة في الكلمة فهي وحي يتنزل وقرآن يتلى وقيم سامية تُطبَّق ، بالقرآن استقامت له قلوب الناس لقد داوى القرآن قلوباً غلاظاً وهذب طباعاً شاذة بالأمس كانوا يقاتلون بعضهم البعض واليوم يقاتلون عدواً واحداً . بالأمس كانوا يغيرون على جيرانهم واليوم يجعلون للجار حرمة وللآخر ذمة . . بالأمس كانوا يسهرون فيحيلون الليل لهواً وصخباً واليوم تهجع منهم العيون في أول الليل وترتفع منهم الأكف في الهزيع الأخير منه يناجون مولاهم بألسن لا تعرف الكذب وقلوب تنـزهت عن الحقد وأنفس ترفعت عن صغائر الحياة وإذا ما أظلهم الصبح فهم آخذون من دنياهم بنصيب لا يشغلهم ما فيها عن ذكر الله ولا تتبدل أخلاقياتهم لبريق يلوح منها أو بزهو تجرهم إليه فتنتها .

تلك لمحات من سيرة الأمة التي عاشت فوق تلك الأرض المحبوبة فالأرض بهم طابت ومن أجلهم تسامت في أعين الناس على مر التاريخ فلا شوق يعدل ذلك الشوق الذي يجدونه في نفوسهم إليها ولا حب يداني ذلك الحب الذي يستشعرونه في أعماقهم لمرابعها إلا أن ما يجدونه في نفوسهم من شوق وما ينسكب من أعماقهم من حب إنما ينبثق ضياؤه من ذلك النور الذي قال الله فيه في محكم كتابه : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ المائدة : ١٥ .





(١٢)

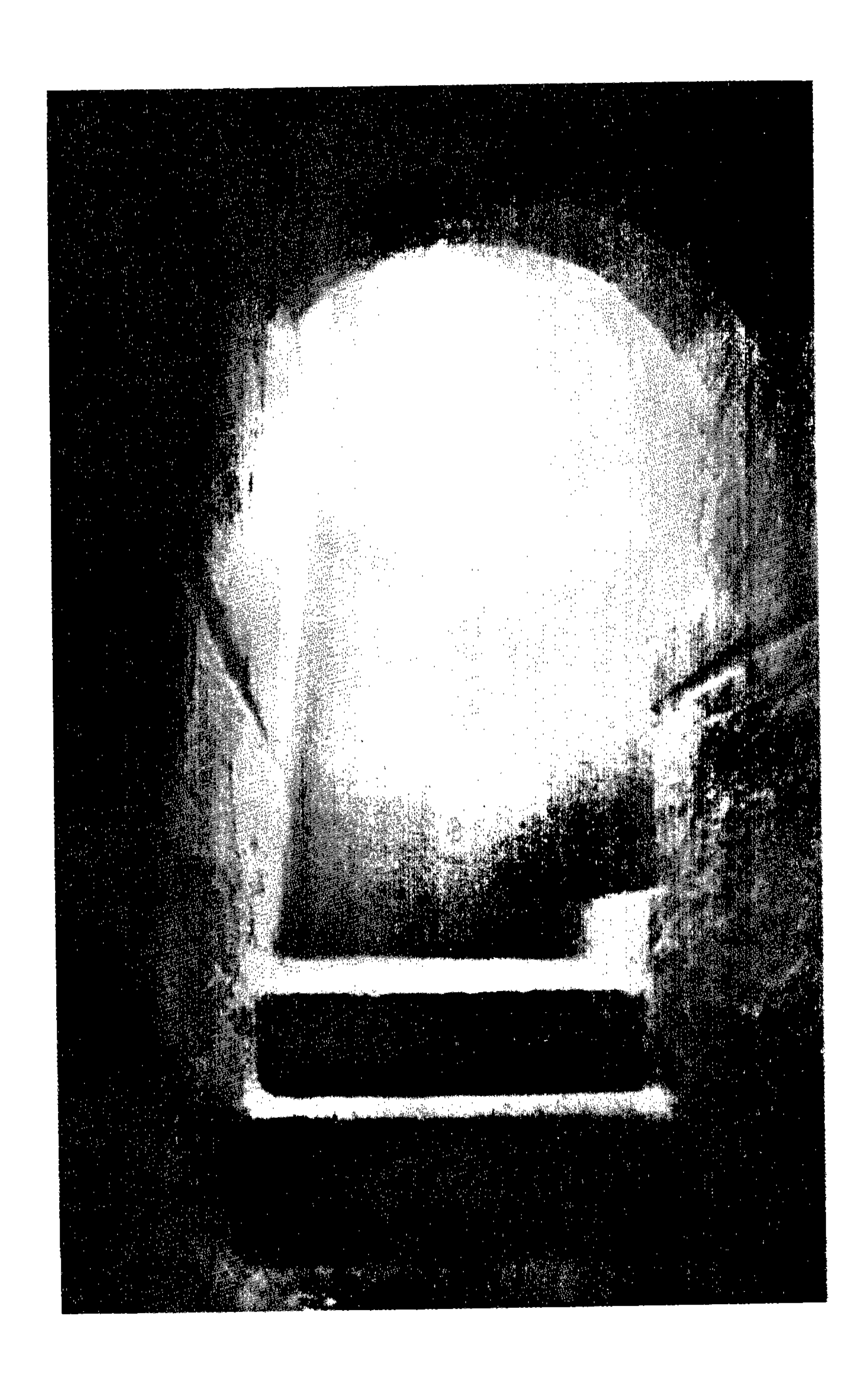
في الصباح البهي الذي تشرق أنواره في سماء البلدة الطاهرة يتوافد الناس على الحارة يطلبون حانوتاً من تلك الحوانيت التي كانت تنتشر على طرفي الطريق الرئيسي للحارة وهو حانوت صغير يلاصق جداره جدار مخبز المعلم حجازي ولا تتسع مساحته إلا لنفر محدود من الناس ولكن النـاس يطيب لها أن تأتي لهذا الحـانـوت من أمـاكن متعددة فتجلس على تلك المقـاعـد العتيقـة والمتميزة بقاعدتها المصنوعة من الشريط الذي يؤتى به من سعف النخل ، ولربما اضطر بعض من يؤمـون هذا الحـانوت للوقوف حتى يأتي دورهم فيجلسون بين يدي الرجل الذي يتوجب عليك ألا تكثر الكلام عنده فهو مجيد لصنعته حافظ لأسماء زبائنه . . وهل يغيب عن الذاكرة التي نشأت في الحارة أو قريباً منها اسم « العم حسن فرغلي » الذي كان يتفنن في صناعة « الفول » لا يضاهيه فيها أحد إلا رجل آخر كان يقوم حانوته في سوق البرسيم وعند مدخل شارع العينية وكان هذا الأخير يدعى عامر ـ رحمه الله ـ حانوت العم فرغلي كان من معالم الحارة البارزة يتساوى في ذلك مع مخبز المعلم حجازي ومقهى طيفور حيث الرحبة التي كانت في حقبة ماضية موضعـاً يبرز فيه أتبـاع الأغـوات مواهبهم في لف العصـا « القشاع » أو ما يسمى بالتَّمدين ، أو اللعب بالسيوف الراح من فوق ظهـور الخيل ولا يكون ذلك إلا في المناسبات كالأعياد ، ومن هنا أتت

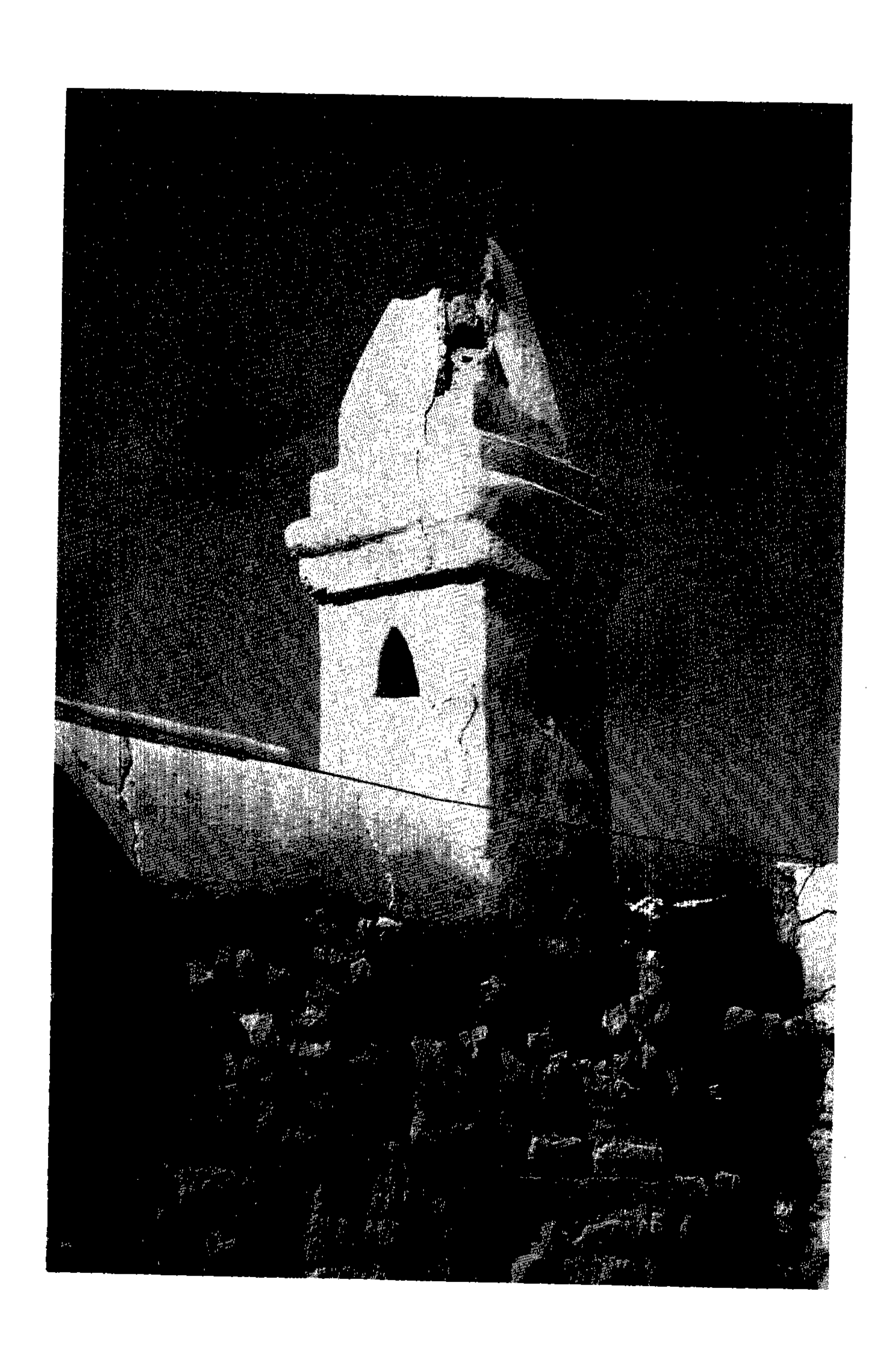
المرتبة التي يحتلها أحد الأغوات وتسمى رأس الخيالة وهي المرتبة التي تلي مرتبتي « المستسلم والنقيب » وقد عرفت من بين الأغوات شخصاً كان يشغل هذه المرتبة واسمه « شاكر » وخلفه شخص آخر فيها اسمه « محمد قرآني » وهذا الأخير كان من أكثر الأغوات نشاطاً وكانت تسند إليه مهمـة فتـح أبواب الحجرة المطهرة عند وصول الوفود الإسلامية للحـرم الشريف وتشرفهم بالوقوف بين يدي المصطفى عليه الصلاة والسلام مسلمين ولتاريخه المشرق متذكرين ولمناقبه العظيمة متمثلين . وكيف لا يحن المؤمن إلى تلك المواضع وقد حن الجذع الذي لا يعقل ورقت القلوب التي كانت في جهليتها لا تلين ، وفاضت العيون التي لم تكن تعرف الدمع وانسكابه من قبل ، فهي المواضع التي تعبَّدَ فيها نبي الهدى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ حتى تورمت قدماه ـ ونزل جبريل بين سواريها بالوحي على قلبه الممتلىء شفقة ورحمة ـ بأبي أنت وأمي يا سيد الرسل ، ويا إمام المتقين ، ويا قائد الغر المحجلين .

في الحارة الليل مضىء فهي تقع بين مسجد رسول الله ﷺ وبقيع « الغـرقـد » الذي يضم أكثر من عشرة آلاف صحابي ـ رضوان الله عليهم . . والنهـار فيها يزيده إشراقاً إطلالة معالم مسجده الشريف وضريحه الذي حفظه الله على مر العصور والأزمان فلا يعرف في الدنيا جميعاً قبر بالتواتر المعلوم الذي لا يقبل الشك وعلى وجه التحديد والدقة كما يعرف ضريح خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وتلك معجزة خص الله بها هذا الدين العظيم .

فكتـابـه محفـوظ من كل تغيير وتبـديل ، وسنتـه مصـونـة من التحريف ، ومعالم مسجده يزيدها مرور الأيام قوة وبهاء ، وهي اليوم

بما تبذله هذه الحكومة الرشيدة بتوجيه خادم الحرمين الشريفين وإمام المسلمين ، الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود ـ حفظه الله ـ هي في خير حلة وأكرم منزلة ، وأعظم تقديس .





بناء الطِّيرمة الذي كان منتشراً في كثير من دُور الحارة

(١٣)

عادات كثيرة كانت تميز مجتمع البلدة الطاهرة ، وتربط أهله بوشائج قوية من الحب والتواصل ، وإن الذاكرة ـ اليوم ـ تنقلني إلى عقود خلت كنا نسعد فيها بحلول شهر رمضان المبارك ، الذي كان يحيل ليالي المدينة إلى ضياء ونور ويغمرها بأجواء من الروحانية التي تعب فيها النفس من معين الطهر والصفاء ، وكان أكثر ما يشدني في تلك الليالي المشرقة مرأى شباب المدينة وهم يرتلون القرآن في جماعات متعددة بين سواري الحرم الشريف وكان من أكثر الناس حرصاً على قيام صلاة الليل في الحرم الشيخ عباس قاري الذي كانت تقوم مدرسته في حي الشونة يخرج هذا الشيخ بجبّته وعمامته متقدماً طلابه إلى الحرم يرددون آيات القرآن بتجويد محكم وصوت ندي . وكان الشيخ عباس يعيش حياة أقرب ما تكون إلى الزهد والكفاف ، وإنني لا أكاد أتذكر الشيخ القاري حتى تقفز إلى ذهني صورة رجل آخر من المجاورين ومن أهل العلم فيها وهو الشيخ إبراهيم الختني ـ رحمهما الله ـ والذي كان يسكن في حي العريضية بالمناخة وبالقرب من مسجد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان هذا الأخير على صلة بشيخ القراء في المدينة المرحوم حسن الشاعر الذي ريته وقد تجاوز المائة من عمره وهو يسعى إلى الحرم في سكينة ووقار ليحل في وسط المسجد ، فيلتف حوله طلاب العلم ، يرتلون القرآن بين يديه ، ولعل البعض

يستغرب إذا ما عرف أن الشيخ الشاعر ـ رحمه الله ـ كان يستمع وهو في تلك المرحلة المتقدمة من عمره لأكثر من قارىء يرد عليهم إذا ما أخطأوا في قراءة ويقوم ألسنتهم بما من الله عليه من علم ، فهو عارف بأصول القراءات جميعها ، وقد حدثني الشيخ جعفر فقيه ـ رحمه الله ـ أن الشيخ الشاعر كان يعقد حلقة لتدريس بعض العلوم الدينية في وسط الحرم النبوي الشريف ولن أنسى وجهاً آخر مشرقاً كان يقوم بترتيل القرآن في ليالي الشهر الكريم ، ويؤم مجموعة من الناس للصلاة بهم بعد انقضاء صلاة العشاء ، وهو الشيخ « هاشم محمد شقرون » ـ رحمه الله ـ كان حافظاً لكتاب الله ، وقريباً من نفوس الناس ، فهو يبدؤهم بالتحية ويبتسم في وجوههم إذا ما أموا داره الكريمة التي كان يزينها مجلس والده الشيخ محمد شقرون ـ رحمه الله ـ الذي كان ينتظم عدداً من أهل الفضل والعلم من بينهم الشيخ محمد علي خيمي ـ رحمه الله ـ والد صديقنا الأستاذ محمود خيمي وكان للشيخين الكريمين « الشقرون والخيمي » منزلة حميمة في قلوب أهل البلدة الطاهرة ، السنة دائمة الذكر وقلوب متعلقة بعالم الروح وشمائل تنزهت عن الصغائر وترفعت عن الدنايا وإني كنت مع جيل من لداتي الشباب ننظر إلى هذين الشيخين في شيء من الإعجاب ونسعد بمجلس يؤمانه أو مجتمع خير يسعيان إليه .

ولم تكن قراءة القرآن ومذكراته تختص بالشهر الكريم وحده ، فلقد كان الحرم يحفل بدروس القرآن طوال العام ، فعند خوخة الصديق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كان ينعقد جمع مبارك فيهم المشائخ محمد علي النجار ومحمد علي السمان ـ رحمهما الله ـ وسليمان حجازي ـ شافاه الله ـ كما أن من بينهم من بارك الله في أعمارهم من أمثال الشيخ

حلّيت بن مسلم وماجد عسيلان وصدّيق ميمني وطاهر عبد الحكيم عثمان وأخيه أحمد ، كان هذا الجمع الطيب يتوفر على قراءة كتاب الله في الوقت الذي يفصل بين صلاتي المغرب ، والعشاء وفي الجزء الآخر من الحرم ـ القريب من باب جبريل ـ كان الرجال الأفاضل من أمثال حسن بخاري وأحمد عبد الجواد وجميل شيناوي والسيد عباس صقر ليس لهم من شغل إلا مطالعة كتاب الله ، وجوه تزينت بالإيمان وقلوب صفت بالحب ومشاعر تغذت من منابع الخير والفضيلة . .

آخر الكلام :

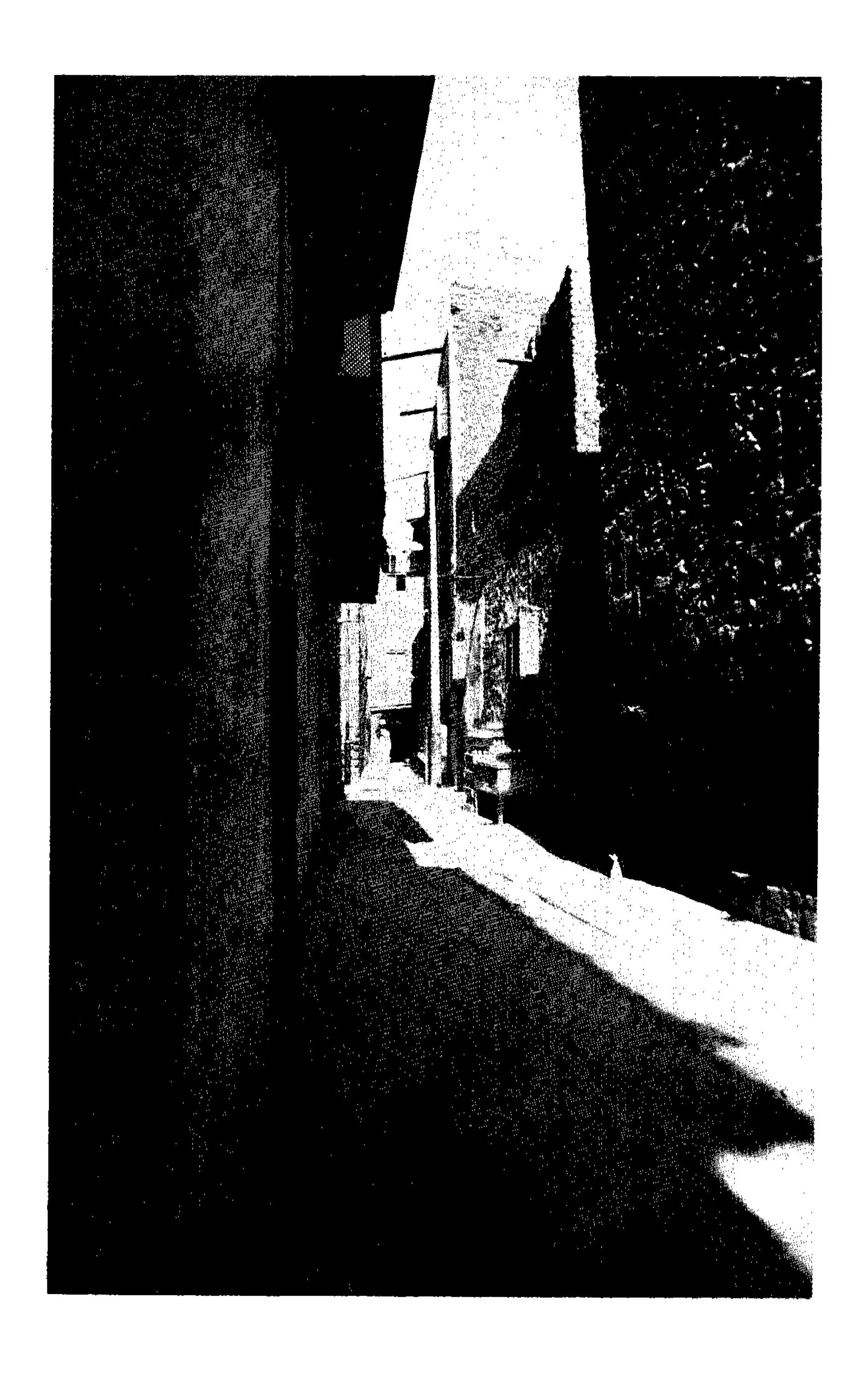
منازل شب فيها الدين واكتملت آياته فاستعارت نورها المدن

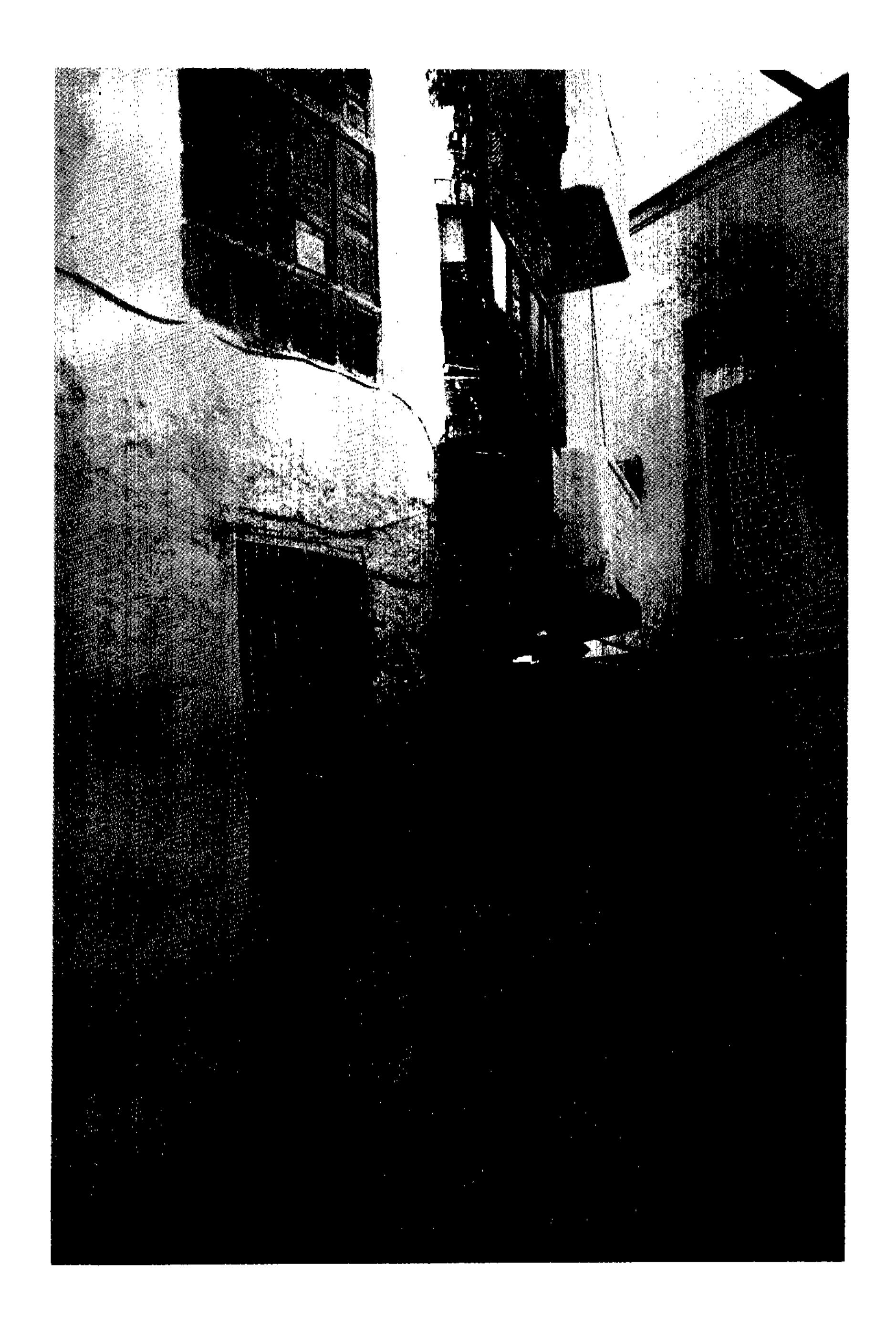
لأي أرض يشد الرحل راكبه يبغي المثوبة أو يشتاقه عطن

أبعد روضاتها الغنا وقبتها الخضراء يحلو بعيني مسلم وطن

ما غوطة الشام ما نهر الأبلة ما حمراء غرناطة ما مصر ما اليمن

كل المنى في رحاب المصطفى جُمِعَتْ ديناً ودنيا فما في مثلها ثمن





منف كان يصل الحارة بالجهة الجنوبية من المسج النبوي الشريف ، وتظهر في الصورة الواجهة الخَلْفية لمنزل إمام الحرم فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح

(١٤)

يَحِلُّ العيد وكل الأيام عيد في المدينة ـ فتزدهي نفوس القوم يخرجون جماعات من أحياء المدينة وأزقتها لأداء صلاة المشهد ، ويسلكون في ذلك سبلاً متعددة ولكنها جميعها تفضي إلى حرم المصطفى ﷺ وهم إذ يخرجون تستقبلهم تلك الساحة الكبيرة التي تفصل بين المنطقة التي كانوا يطلقون عليها « جُوَّة المدينة » والمناطق الأخرى التي تقوم قريباً من السور أو خارجه ، وتلك الساحة هي المكان الذي كان أهل المدينة يقصدونه إذا ما أشرقت الشمس ويأوون إليه إذا ما أظلهم المساء بهدوئه ، وسكينته ، الكبار منهم يجلسون في المراكيز يستعيدون الماضي ، الذي عاشوا أحداثه ، ويروون شيئاً من القصص الجميل الذي يذهب عن النفس كثيراً من كدر هذه الحياة ، ولا ينسون أن يعرجوا على تلك الذكريات المتصلة بحياتهم في بلاد جاوة والهند أو الشام والتي يضنون بشيء من تفاصيلها على الناشئة من شبابهم ، وإذا أرادوا أن يتوسعوا في شيء من حديثهم ذلك ، طلبوا من ناشئتهم الانصراف ولكن في لباقة وحسن أدب ، في تلك الساحة التي تظلّلها الأشجار وتقوم على جانبيها المقاهي ، رأيت الكبار يفرحون بالعيد كما يفرح به الصغار ، ولا يمنعهم وقارهم من أن يلهوا ساعة من الزمن لهواً بريئاً ما أحوجنا اليوم إليه في خضم هذه الحياة المادية وهي سمة من سمات العصر بأكمله والتي لا نشعر فيها إلا باللهاث الذي

لا تنتهي مطالبه ، ولا نعرف له نهاية نقف بنفوسنا عندها .

رأيتهم يمارسون رياضة « القشاع » يمسكون بالعصي في شجاعة ويلوحون بها في محبة وكان القشاع في الماضي وسلة من وسائل الدفاع عن النفس في الحقب التي كان ينعدم فيها الأمن على نفس وخصوصاً إذا ما حل المساء واعتصم الناس بدورهم وجلسوا يستمعون إلى حكايات الجدَّات وهي حكايات تقوم في بنائها القصصي على كثير من الأساطير ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة للتسلية ، وكان الجَمْعُ يتحلَّق حول المرأة الكبيرة التي تمسك بالإبرة والسِّيم وتتفنن في صنع الكوافي المزركشة فهي تارة تخفض الرأس لتنظر إلى موضع الإبرة وأخرى ترفعه لتكمل ما انقطع من حكايتها . الجميع يلتزمون الصمت ولا يجرؤون على السؤال . . فللجدَّات حِسٌّ مرهف ومزاج تعتوره الحدَّة بين الحين والآخر ، تحلق العائلة حول الجدة يذكرني الآن بتحلق الصغار حول جهاز التليفزيون ولكن حديث الجدة مع طرافته وعذوبته ، له أمد محدود ينقضي عنده ، ونحن اليوم كثيراً ما نسيء عن عمد أو غير عمد استخدام هذه الوسيلة الحديثة للتسلية ، فنرى أبصار أبنائنا مشدودة إليها لساعات طويلة وعقولهم مرتبطة بها ، فرفقاً بأبصار لم تر من الحياة بعد شيئاً كثيراً وحفاظاً على عقول يجب أن تأخذ من أوقات لهوها بمقدار حتى لا يضيع ما تعلمته في أوقات الجد والعمل .

لم يكن القشاع ذلك الشيء الوحيد الذي يشدُّني إلى ساحة المناخة ولكن وجوه الرجال كانت تستهويني ، ملابسهُم ناصعة البيضا ـ كوافيهم شامخة كشموخ جباههم ، وعمائمهم الصَّفراء تيجان فوق رؤوسهم يقيمونها في مقامات الفرح وينزلونها في مقامات الحزن ولحاهم التي يقتدى فيها بسنة المصطفى ﷺ هُذِّبَتْ أطرافُها ويفوحُ الشَّذَى الطيب

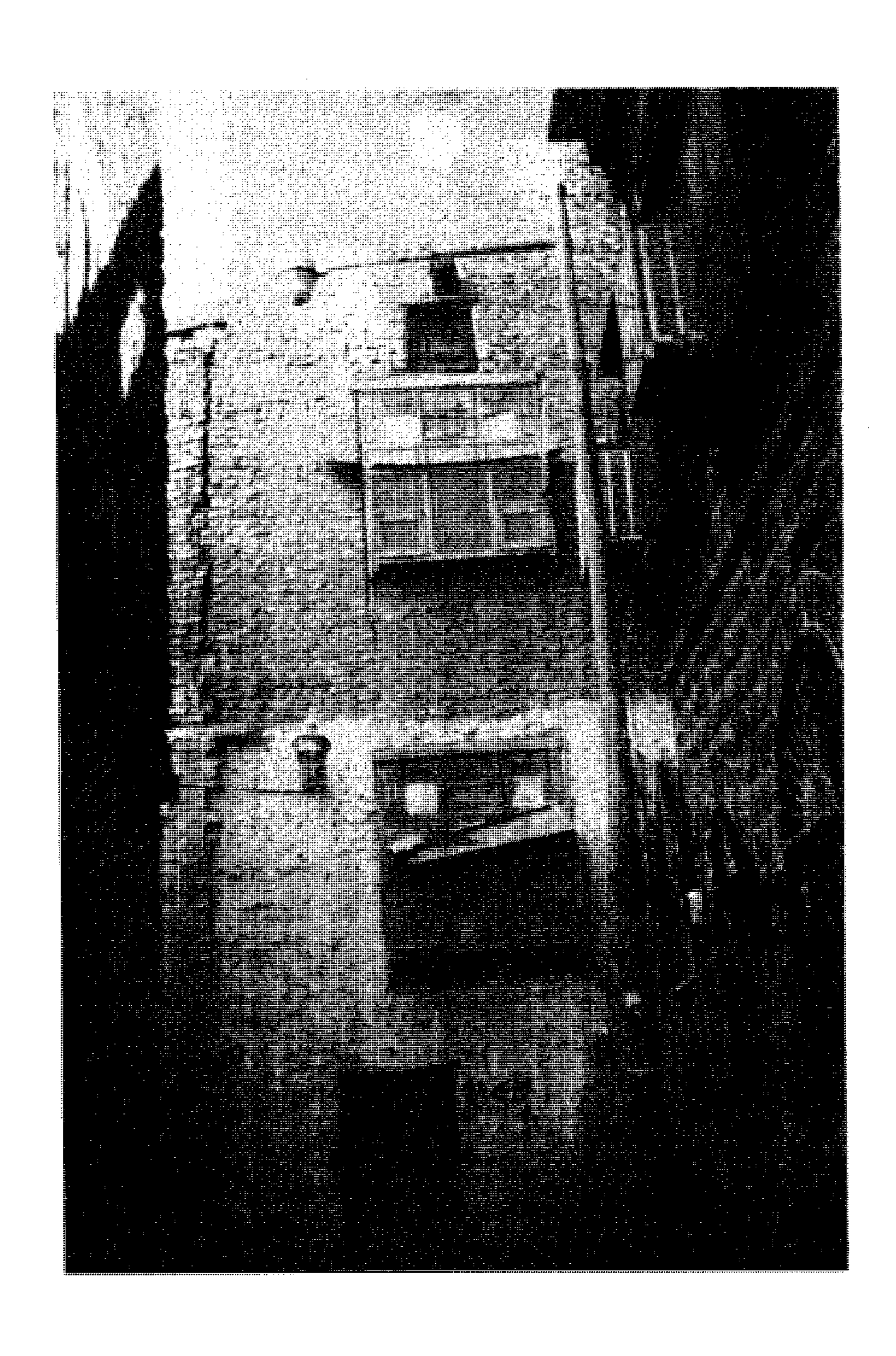
منها يقربون الصغير في مجالسهم ويعطفون على ذوي الحاجات إذا ما قصدوهم ويحفظون ألسنتهم عن الخوض في أنساب الناس وخصوصياتهم، وإذا ما انفض المجلس وتفرق الجمع ختموا حديثهم باستغفار وبالصلاة على سيد ولد عدنان ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ ما أطيب ذكراهم ، وما أجمل سيرهم ولكنني كثيراً ما أمر على الديار التي كانت تشهد حديثهم وأوقات سمرهم ، وأنا أردد قول شاعر المدينة سعد الدين بن عبد الجليل براده ـ رحمه الله ـ في قصيدته التي يتشوق فيها إلى المدينة بعد خروجه إلى الشام أثناء أحداث الحرب العالمية الأولى :

ياللهوى لسويعات مضت بقبا	وللعوالي بقلبي وخز مران
قربان روحي أفديه لرؤيتها	ياليت شعري هل أحظى بقربان
وأحرَّ قلبي على وادي العقيق فكم	أجرته عيناي منظوماً بعقيان
لذلك السَّيح ساحت عبرتي وغدت	تسقي النَّقَا ولكم سالت ببطحان؟
يا حادي العيس قف، هذا البقيع	وذا سَلْعٌ، فان به روحي وريحاني

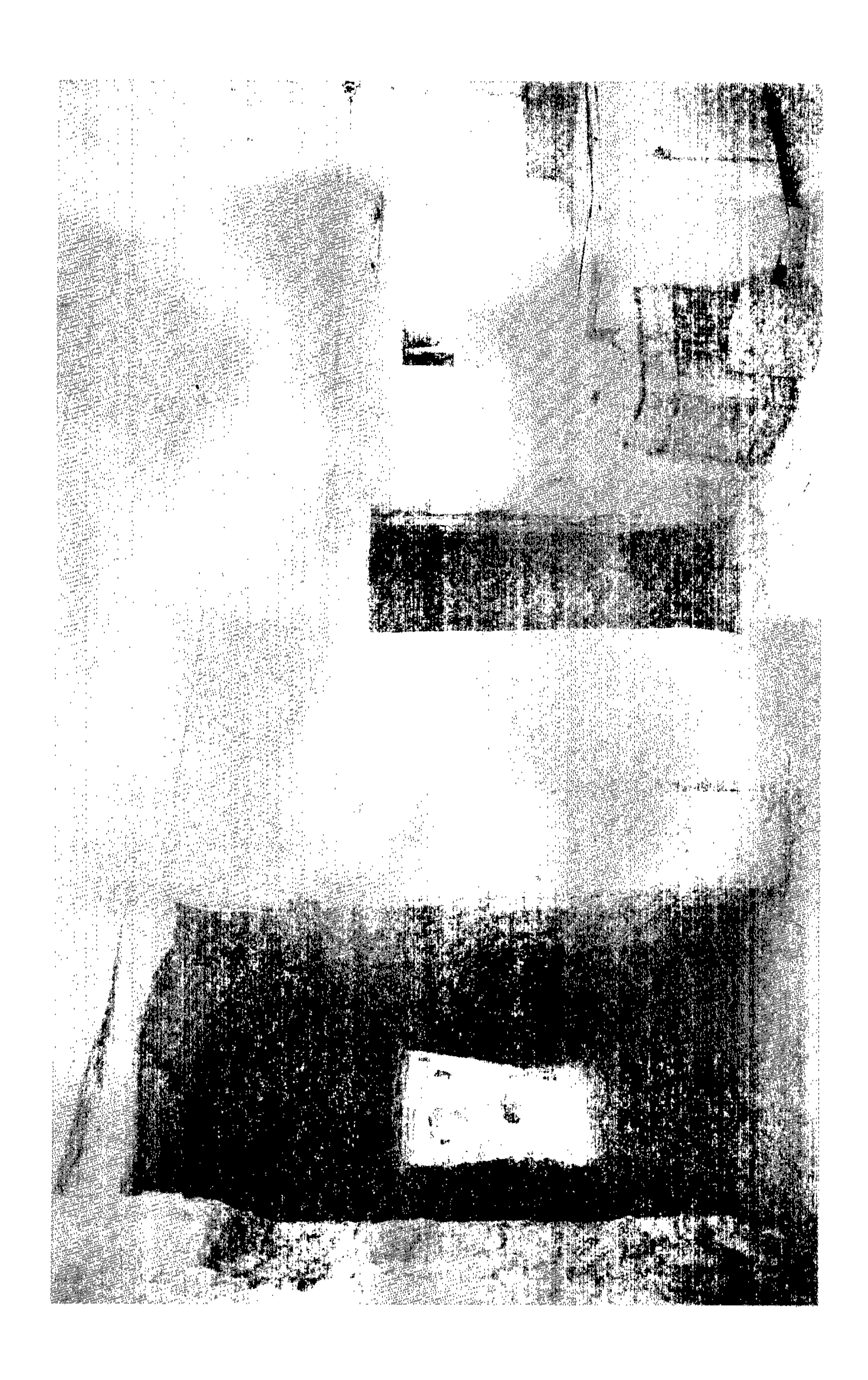
خاتمـــة

الأديب الفاضل والصديق الكريم الأستاذ عبد الرحمن الأنصاري ، لقد وقفت كثيراً عند كتاباتك القيمة عن المجلس الثقافية ، وعن حديثك الممتع عن رجل أحبه الكبار والصغار في بلد المصطفى ﷺ الشيخ عبد الحميد عباس ـ رحمه الله ـ ولعل الفرصة تواتيك فتخص بالحديث رجالاً عرفتهم عن قرب ، ووقفت على كثير من المآثر في حياتهم ، فلكم رأيتك تتردد على مجلس يضم صفوة من

الرجال من أمثال أبي هشام السيد أديب صقر ، والسيد علي كماخي والد الدكتور الفاضل خالد كماخي والشيخ عارف برادة ـ رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته ـ وأسأل الله أَنْ يُبارِكَ حلِّيت لنا في بقية أهل العلم والقرآن صاحب الدار العامرة في حي قباء الشيخ الفاضل حليت بن مسلم والد الشاعر المبدع الأستاذ عبد المحسن بن حليت فهو جدير بكل حب وتقدير وثناء .



الطَّرف الآخر من واجهة رباط الميمن



(١٥)

المناخة بمقاهيها وبعربات « الكَرُّو» التي ينطلق بها أصحابها في أرجاء المدينة بحثاً عن الرزق ، فهي تحمل الناس وأشياءهم من مكان إلى آخر ، ولعل أذكر نوعاً من العربات كان خاصاً بحفلات الزواج ، وأظن من كنا نطلق عليهم اسم « الدقَّاقات » في المدينة ـ وهي الفرقة المختصة بإحياء حفلات الزفاف ـ ضرباً بالدف وإنشاداً للكلمة ـ ، هذه الفرقة كانت تستقل هذا النوع الخاص من العربات والمتميز بوجود الستائر على أطرافه ، فكل شيء في مجتمع المدينة ينزع إلى الحشمة والتمشي مع آداب الإسلام .

تنطلق العربات مع طلوع الشمس ثم يستقر بها المقام في آخره في مكان يدعى « الحلّة » وأنت إذا ما مررت بهذا المكان بعد أن يحل المساء وتتوقف الحياة عن حركتها المألوفة فسوف تجد أصحاب هذه العربات ما بين مفترش للأرض أو مستلق على مركاز من الخشب يحدق ببصره في سماء المدينة الصافية ، وما أجمل تلك السماء التي أظلت خير من أنجبت النساء ، وأكرم من مشى على الثرى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ ، وهم بعد زمن من إخلادهم للراحة يعود النشاط إليهم من جديد فتراهم قد تناثروا في تلك المقاهي جماعات يحتسون أقداحاً من الشاي ويأكلون شيئاً من الطعام ، وكان الطعام المفضل في « الحلة » هو « الكِبْدة » يصنعها رجل متخصص اسمه « العزي » ولم يكن الذين يؤمون « مَبْسَط » العزي من أهل الحلة فقط ولكن جموعاً كثيرة من أهل المدينة تتوجه إلى « المناخة » صباحاً أو ليلاً لتتناول هذه

الوجبة الشهية التي عرفت أيضاً في مدن أخرى مثل مكة المكرمة، وما أكثر ما ريت أهل البلد الطاهر وهم يسرعون الخطى مع مطلع كل يوم إلى سوق الليل فهناك حانوت «الكِنو» الذي يقوم على مقربة من مقهى المريعاني الشهير.

وفي الحلة يجلس العم «شلبي بيطار» يصلح «حدوة» الخيل والبغال، وليس بعيداً عنه يبدو رجل يميل لونه إلى البياض، ولكن أشعة الشمس المحرقة قد أحالت سحنته إلى شيء من السمرة، يشد الحزام في وسطه وينتقل ما بين مقهى «النَّقاوي» ومربط الخيل ومجموعة من القِطط تسير خلفه فهو يقوم بإطعامها ويخصها برعايته، ولكنه على كل حال لا يبلغ في عنايته ذلك المستوى الذي بلغه رجل من المهاجرين الهنود فلقد كان يسكن في بيت في «ذروان» تجاوره فيه القطط، وإذت سافر في شوارع الدينة متكئاً على عصاه رأيت هذه القطط تتبع خطاه فهي لا تقوى على فراقه ولا تسعى للانفصال عنه، أعود إلى رجل المناخة الذي لا أعرف إلا اليسير عن شخصيته، فأنا لا أعلم إذا ما كان شيخاً لأهل الحلة، أو أنه بحكم السن يرجع إليه الفتيان من أهل الحرفة يستفتونه في شؤونهم ويرجعون إليه في قضاياهم، وعندما استعيد الآن صورته أجده في الحقبة التي عرفته فيها قد بلغ مرحلة متقدمة من العمر، ويظهر ذلك من انحناءة ظهره وبروز الشيب في عارضيه، ومع أن أهل الحارة يفضلون دائماً - حلاقة الرأس - إلا أن «الكوفية» البلدي كانت كفيلة بتغطية الجزء الأكبر منه، أما هذا الرجل الذي تحدثت عنه، واختفى فجأة من المناخة وسمعت بعد ذلك أنه ذهب إلى الرياض وتوفي بها، فهو العم «محمود سِحْلي» - رحمه الله -.

وإذا كان «السِّحلي» - رحمه الله - واحداً من تلك الشخصيات التي كانت تشكل ملامح الحياة في ذلك الجزء الهام من المدينة، فلقد كان هناك

رجل آخر يتميز بالابتسامة التي ترتسم على ملامح وجهه الأسمر ومع أنه يعمل « غندرياً » إلا أنه كان دائم العناية بملابسه ، الحزمة في وسطه ، والعصى بين يديه ، والشباب في « الحلة » ينادونه بالمعلم « كردش » وأذكر أن شاباً كان يسير في المناخة فتحرَّشَ به أحد من هؤلاء الشباب ، فذهب إليه يشكو طيش هذا الشاب وتعديه عليه ، رأيت « كردش » يقوم من مركازه ، يوبّخ المعتدي ، ويطيِّب خاطر الشاب الغريب ، وهكذا كانت سمات أهل الحارة نخوة وشهامة ، ووقوفاً إلى جانب الحق حتى ولو كان المعتدي من ذَوي القربى .

مررت بعد غربة دامت سنين عن المدينة على حي المناخة ورأيت رجلاً كنت أعرفه فيما مضى شديد البأس مكتمل الصحة ، رأيته وقد أخنى عليه الدهر ، فضعف منه البصر ، وذوى منه الجسد ، فسلمت عليه لأسأله عن أهل المناخة الذين اختفوا ، واختفت معهم بعض ملامح الحياة الشعبية والتي كانت جزءاً من المجتمع في الحقبة الماضية ، قال لي يا بني : مات أكثرهم ، وهجر البعض الآخر مناخَتَه إلى نواح أخرى ، ولكنها ظلت حلماً جميلاً تعيشه مشاعرهم وأحاسيسهم ، وأنشودة عذبة ترددها ألسنتهم ، قلت له : تلك - يا عم - سنة الحياة ، وطبيعة الدار الفانية ، ولكننا بفطرتنا نحن دوماً إلى ذلك الماضي بكل إيجابياته وسلبياته ، تتوق إليه منا النفوس ، ونذرف على تصرم أيامه الدموع ، ولا أدري هل نحن بهذا الشعور نبكي أنفسنا ، أم نبكي الزمن لذاته ، أم نبكيهما معاً .

آخر الكلام :

وفؤاد كلما عاتبته	في مدى الهجران يبغي تعبي !
لا أراه الدهر إلا لاهياً	في تماديه، فقد برَّح بي

يا قرين السوء ما هذا الصبا ؟ فني العمر كذا في اللعب
وشبابي بان عني فمضى قبل أن أقضيَ منه أَربي
ما أرجى بعده إلا الفنا ضيق الشيب على مطلبي
ويح نفسي لا أراها أبداً في جميل ، لا ولا في أدب
نَفْسِيَّ لا كنت ولا كان الهوى راقبي المولى ، خافى ، وارهبي





(١٦)

واستيقظت ذات يوم على وقع أصوات غريبة لم آلفها من قبل ، حداء قرأت عنه في الأسفار ، ونشيد مثل ذاك الذي تحدثت عنه كتب السيرة ، ولو أنني لم أسكن في « حي العنبرية » مدخل المدينة المعروف لما بلغت إلى سمعي تلك الأصوات ولم تتفاعل أحاسيسي مع تلك الأهازيج ، خرجت من داري يحدوني تطلع الناشئة من الشباب وفضولهم ، فإذا النوق والبهائم قادمة من البلد الحرام وقد ترجل من فوق ظهورها الفتيان الذين يسيرونا لهوينى ولا يتعجلون الخطى ، ولكنهم ما أن بلغوا شارع العينية حتى امتطوها ، وساروا بها إلى نهايته ، يرددون كلاماً لا أحفظه ، ثم يعودون أدراجهم إلى « المناخة » يقيم بعضهم في « الحلة » والبعض الآخر في زقاق « الطيار» إلا أن النوق انفصلت عن مسيرة الركب ، وهبطت الدرجات التي تسلمك إلى الساحة التي كانت تمتد بين بابي السلام والرحمة ، ثم أناخت غير بعيد عن الباب الأول ، ولأول مرة أرى النوق تمرغ خديها في تلك الرحبة ، كل شيء في هذا الوجود يحن إلى سيد الوجود وصفوة الخلق محمد بن عبد الله ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ ألم يحن إليه الجذع ، الذي كان يتكىء عليه أثناء خطبت في المسجد ، واهتز جبل أحد عندما ثبتت أقدامه الشريفة عليه .

كنت مغرماً برؤية أشكال هذه الفئة من الناس التي تزور المدينة

في كل عام ، تشد الرحال إل المسجد النبوي الشريف ، وتقف بين يدي المصطفى ﷺ وصحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ مسلمة ، وكان بعضهم من احترامه للبلدة الطاهرة لا ينتعل فيها حذاء وكنت أتعجب كيف بإمكانهم تحمل أشعة الشمس المحرقة ، وخصوصاً في أيام تبلغ فيها الحرارة شدتها ، ولكنني عرفت فيما بعد أن « أبناء الحارة » قد تعودوا على السير على الأقدام كما تعودوا على شظف العيش وقسوته .

كان الركب ينتظم مجموعات كبيرة من أهل الحارة في مكة ولكنني أعتقد أن أحياء مثل المسفلة والنَّقا ، والشعب ، والشبيكة ، كانت تشكل الغالبية من أفراده ، وكان أهل مكة يخرجون لتوديعه في الوادي ، ولعل ركباً كان يخرج من المدينة في الماضي وقبل توفر وسائل المواصلات الحديثة وسمعت أن رجلاً من سكان « العنبرية » اسمه حمزة لبان » كان شيخاً من مشايخ هذا الركب ، ولعل صديقنا الدكتور « يوسف بن أحمد حوالة » يُحدِّثنا عن ركب المدينة فهو من أهل الساحة وأسرته الكريمة في الذروة من وجهائها ، ولا أنس أَصْهارهم ـ آل الملا ـ فلقد كان المرحوم عبد القادر ـ ملا ـ شَيْخاً لهذا الحي المشهور في البلدة الطاهرة ، وفي الحقبة التي كان فيها معتوق بري ـ رحمه الله ـ شيخاً لحي المناخة .

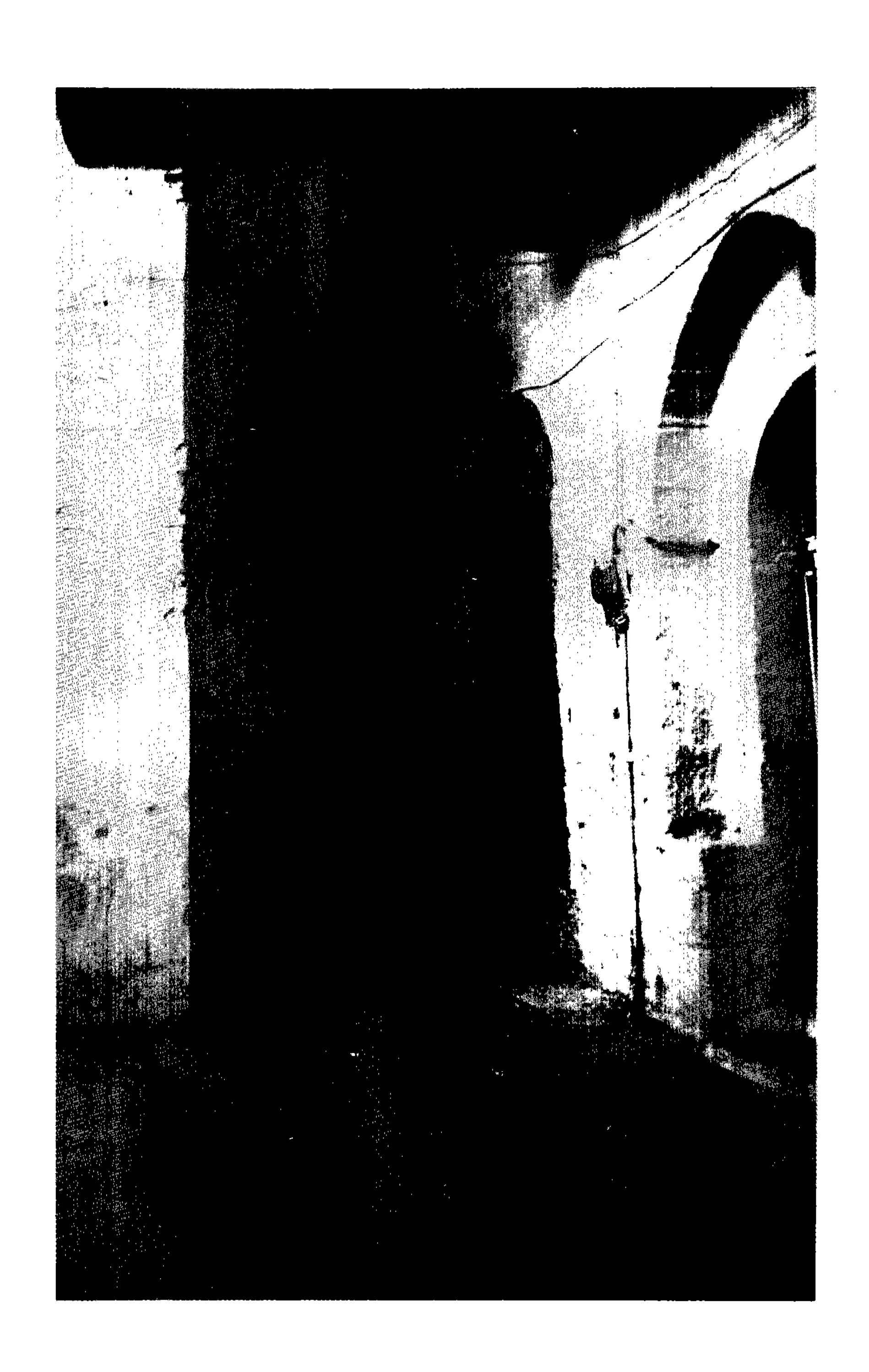
كان لأهل الركب أصدقاؤهم بين الحلّة وزقاق الطيار وقهوة « الفار» قرب باب الكومة ـ وكان هؤلاء الأصدقاء من المدنيين يفتحون دورهم لإخوانهم المكيين ، ويرحبون بهم أجمل ترحيب ، وإنك إذا خرجت ليلاً إلى المناخة بعد انقضاء صلاة المغرب أو العشاء ، فسوف تجد القوم ينتشرون في المراكيز يتبادلون أحاديث.

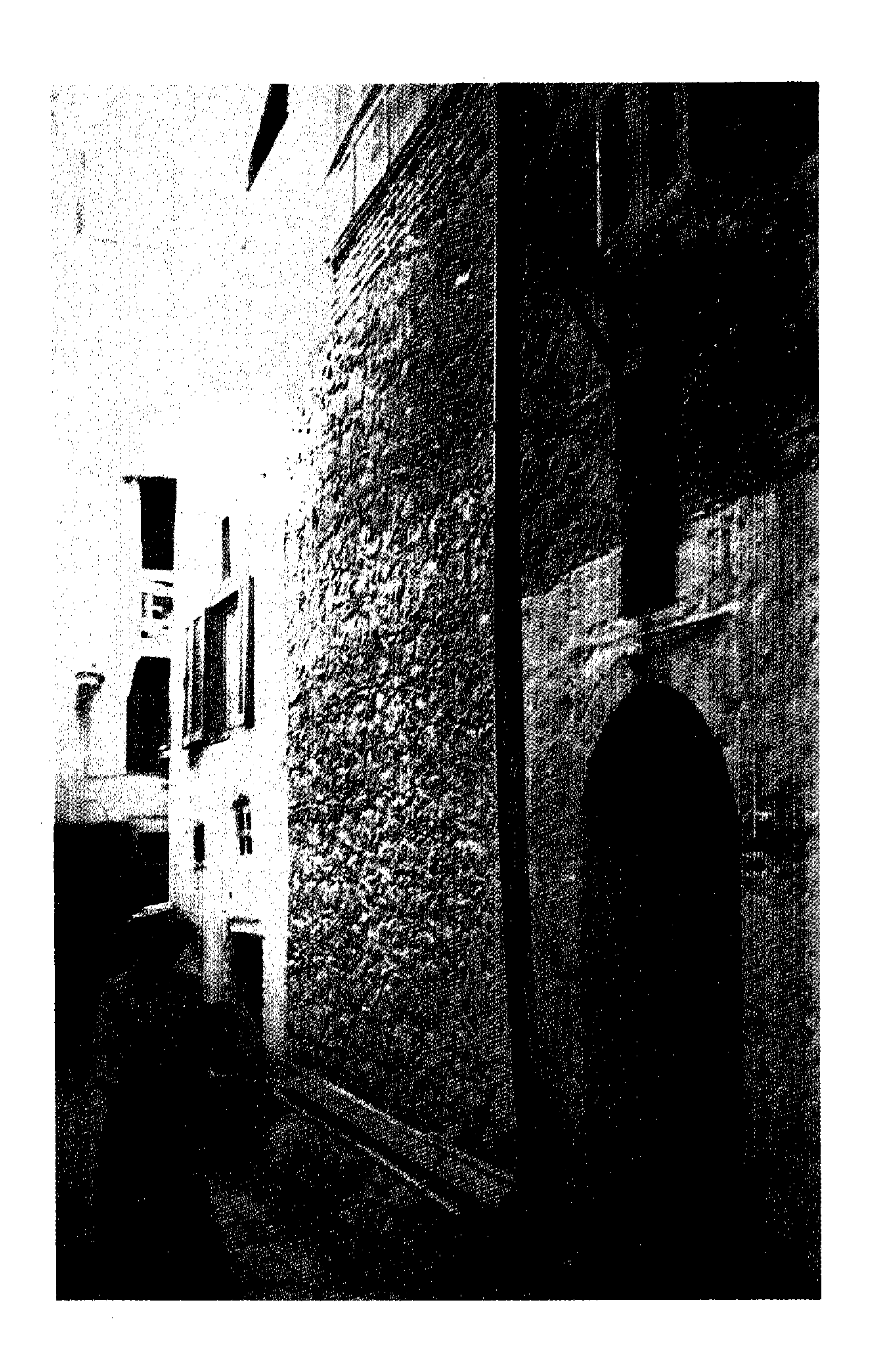
الصفاء وينشدون بعضاً من أدوار « الصَّهبة » التي أقرب ما تكون إلى ما يعـرف بالموشحات الأندلسية ولكل دور طريقة في الإنشاد ، وهو إنشاد يعتمد على حركة « كف اليد » ولا يصاحبه شيء آخر ، وإن كنت لا أعلم لماذا يسمونه بالمصري ويسمون نوعاً آخر من الإنشاد « اليماني » ، ولعل البعض ممن تعمقوا في معرفة هذه الموشحات يفصل القـول لنـا في ذلـك ، وهذا يدخل في باب تاريخ الأدب فالدكتور « محمـد عبـده غانم » نال شهـادة الـدكتـوراه من معهد الدراسات الأفـريقية والشرقية بجـامعـة لنـدن عن أطـروحتـه في « شعر الغناء الصنعاني » والتي جاءت في حوالي ٤٥٠ صفحة وطبعت مرات عديدة كان آخـرهـا في بيروت في عام ١٩٨٣ م ، وما خصه الدكتور غانم بدراسته وبحثه قريب من الموشحات التي تكاد تندثر لدينا ، فهي نتاج عصر قد مضى ولكنني أرى أنـه لا بد من التـوقف عنـدهـا ومعرفة جذورها من حيث نسبة الأشعار التي تنشد إلى قائليها ، ومن حيث أدائها وهي بلا شك تتصل برباط قوى بذلك الإنشاد الذي استقبل به الأنصار نبي الهدى عليه صلوات الله وسلامه عند هجرته إلى المدينة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

آخر الكلام :

وإذا المطي بنا بلغن محمداً . . فظهورهن على الرجال حرام . .

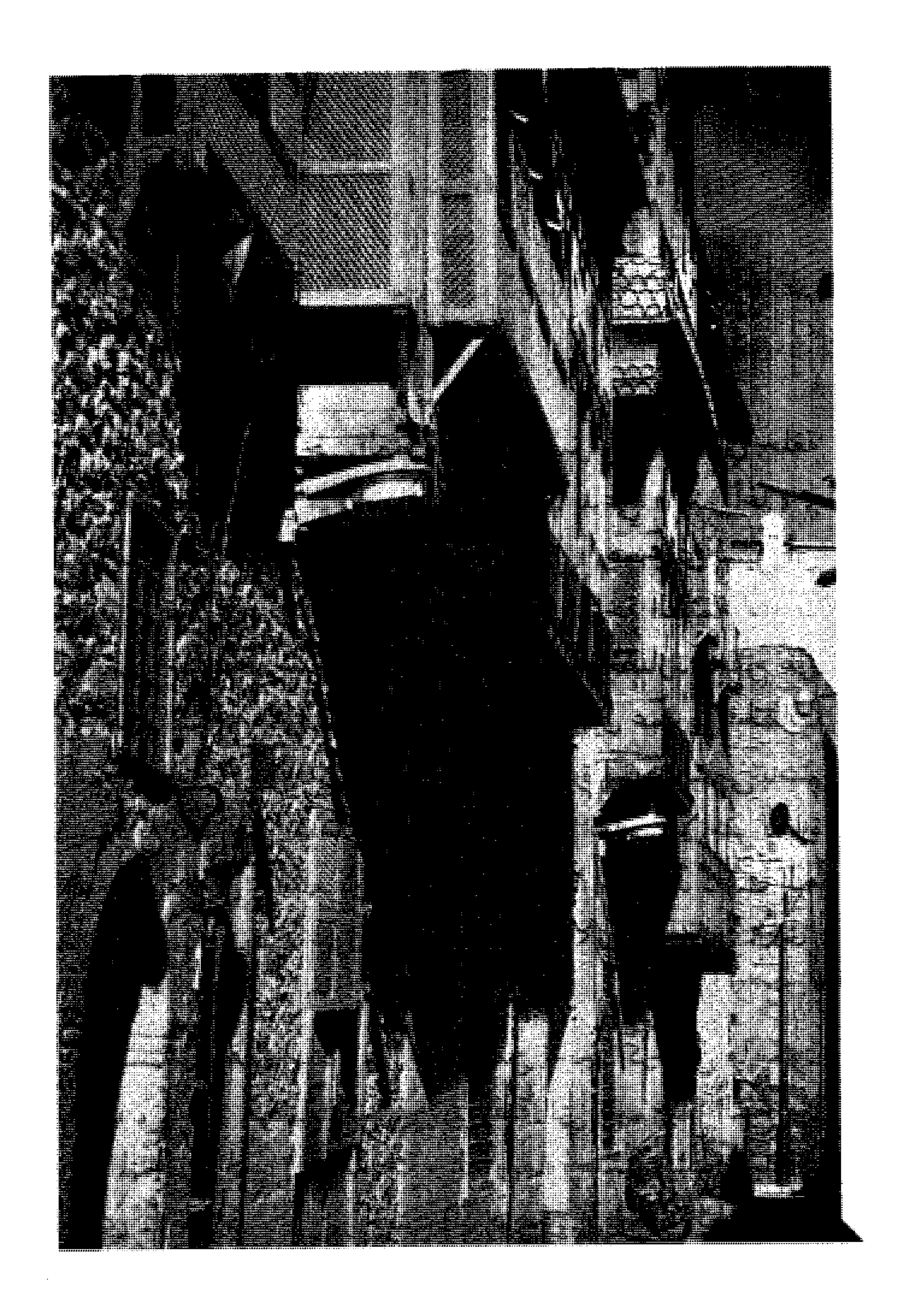




(١٧)

كنت أعـرف من حي العنبرية والذي سبق أن ذكرت في حلقة سابقة أن اسمه مشتق من اسم شخص كان يدعى « عنبر أغا » ، أعرف من هذا الحي جزأه المطل على « المسيل » وهو مجرى لسيل أبي جيدة ، ويقوم على طرفي الشارع الموصل إلى المناخة القائمة أمام ما كان يعرف عند أهل المدينة بـ « الخان » ـ سوق الخضار ـ ، يقوم على طرفي هذا الشارع مسجد يسمى باسم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وبناء قديم ترتفع من وسطه منارة لمسجد يسمى باسم سيدنا ـ بلال ـ رضي الله عنه ـ ، وما هذا النبأ القديم إلا مقر لإمارة المدينة ، ولعلي في أثناء مروري بالقرب من هذا البنَاءُ قد دلفت إليه يوماً فرأيت ساحة ينبت فيها شيء من الشجر لا أتذكر هل هو النَّخل أو السِّدْر؟ .

ويسـامت هذا البنـاء دار نحتت من الحجر كأحسن ما يكون النحت ، فلقـد عرفت المدينة بوجود الفئة التي تقيم هذا النوع من البناء المتناسق الجميل ، وهي فئة « القرارية » وحدثني الشيخ عبد الله بصنوي ـ رحمه الله ـ أن دار الجنيد المشهورة في حي حارة الباب بمكة المكرمة والتي آلت ملكيتها إلى معالي الأستاذ أحمد زكي يماني ، هي من تشييد أهل هذه الحرفة في المدينة ، أعود إلى الدار المنحوتة من الحجر على مدخل الباب الجديد ـ فأتذكر أن قبة صغيرة مضيئة كانت تقوم



كانت الرّواسين الخشبية تزيّن كثيراً من واجهات دور المدينة المنورة ، ومن بينها دور حارة الأغوات

فوق هذه الدار ، ولم تكن هذه الدار إلا دار آل الخريجي الأسرة المعروفة بالمدينة والتي برز من بينها عدد من الرجال الذين ساهموا بجهودهم في أعمال الخير والبناء الاجتماعي والفكري .

في الليل تتهادى إلى سمعي أصوات الحيوانات القابعة في المسيل ، وفي الصباح أستيقظ على حداء « السَّقا » يأتي لملء « زَفَّته » المصنوعة من إناءين من الصفيح يصل بينهما عود من الخشب المتين ، يأتي هؤلاء السُّقاة مع الفجر إلى منبع الماء الذي كان يقوم على مرمى خطوات من دارنا فأنظر إليه من ثقوب « الروشان » أو ما يعرف بالمشربيات ، ومعظم الدور في المدينة كان يزين واجهتها هذا النوع من النوافذ ، وهو بالإضافة إلى ما يكشف عنه من حس وذوق فني عند القائمين على صنعته فهو له دلالته الاجتماعية المتمثلة في إعطاء أهل المنزل إمكانية النظر إلى الشارع أو الحارة دون أن يتمكن المار في الشارع من معرفة خصوصيات الدور مع أن الوضع الاجتماعي كله كان يسير في منحى واحد وهو الحفاظ على التقاليد الإسلامية من رعاية للحرمات وحفظ لحقوق الجار وصون لوحدة الحي الذي يشكل جزءاً من المجتمع الأم .

ينزل المطر تمتلىء آبار البيوت المحيطة بالسيل بالماء ، وتمتلىء بمائها تلك « الخرز » المنتشرة في مجرى السيل نفسه ، يخرج الصغار من الأحواش المتقاربة وأكبرها حوشاً « عميرة » و« مناع » وأصغرها حوش « السيد أحمد » الذي كان يقوم في بدايته دارنا ودار الأفندي « ناجي » أحد العاملين السابقين في « الخالدية » المركز الرئيسي للشرطة بالمناخة يخرجون إلى شجرة النبق الممتدة الجذور في أرض مسجد سيدنا عمر ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وقد اخضرت منها الغصون ويجمعون في براءة

طفولية ما تساقط من حبات النّبق . . لا أعلم لماذا استقرت في ذهني صورة أشجار النبق والسدر التي كانت تنتشر في نواح مختلفة من المدينة ، من بينها المناخة وسوق الحبابة ؟ فلا أتذكر المدينة القديمة إلا وأتذكر معها هذا النوع من الشجر ، ولا أعلم لماذا لا تتخذ بلدية المدينة ممثلة في أمينها المهندس عبد العزيز بن عبد الرحمن الحصين خطوة رائدة في تظليل شوارع المدينة بأشجار النخيل والسدر .

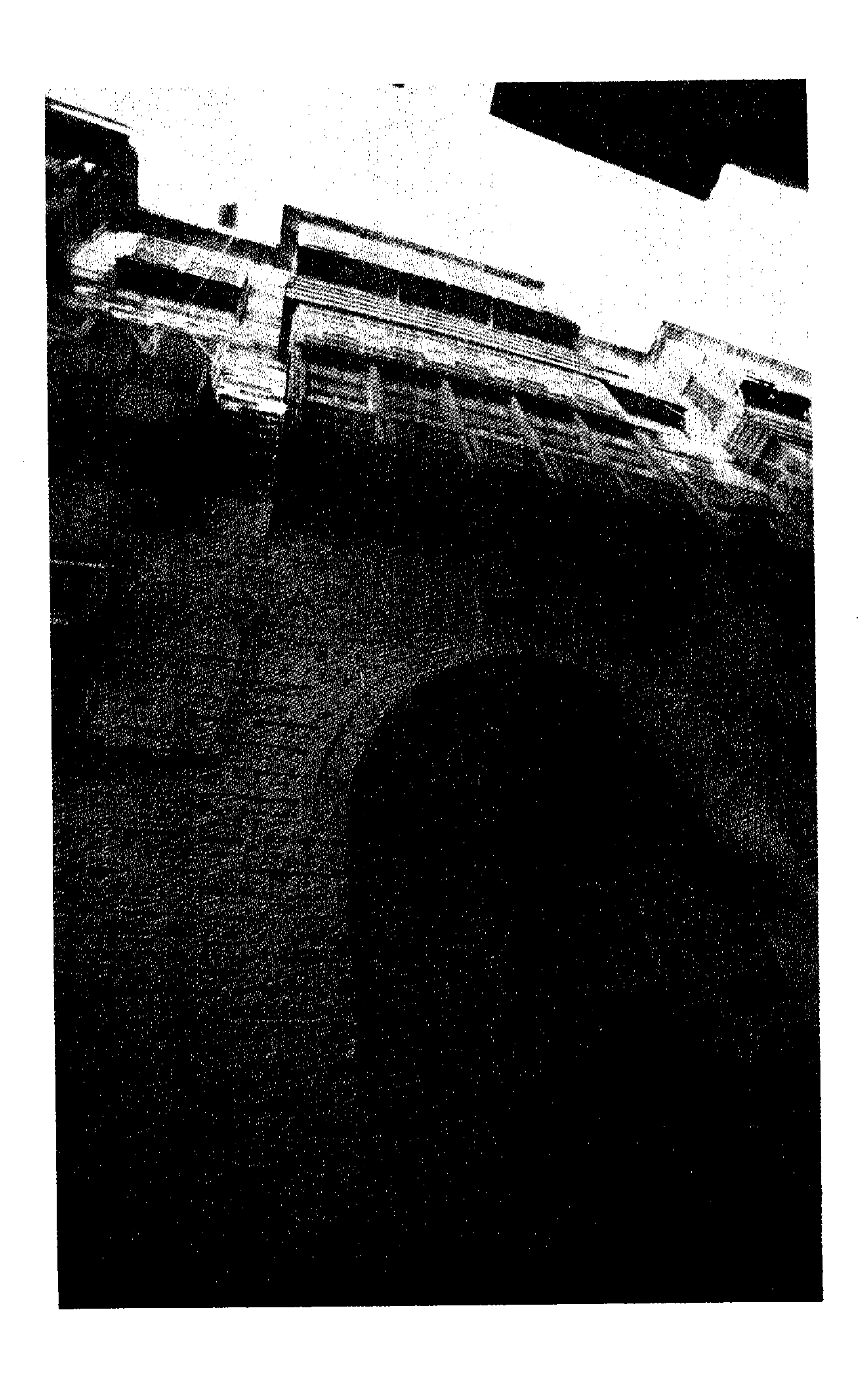
إذا نزل المطر وكثيراً ما كان ينزل تتجمع المياه وتسيل السيول ، سيل عروة ، وادي العقيق ، والعاقول ، وسيل أبي جيدة ، ووادي بطحان ، والأخير هذا كنت أشهد موسمه بحكم موقع دارنا ، يأتي الناس من جميع أنحاء المدينة ، يتجمعون على أطراف الوادي وبعضهم بحكم صلته بأهل المنازل المطلة على مجرى السيل يتخذون من «الرّواشين» مقعداً لهم لينظروا إلى المياه وهي تنحدر من قوة عجيبة من قربان إلى منطقة « السيح » وما ورائها .

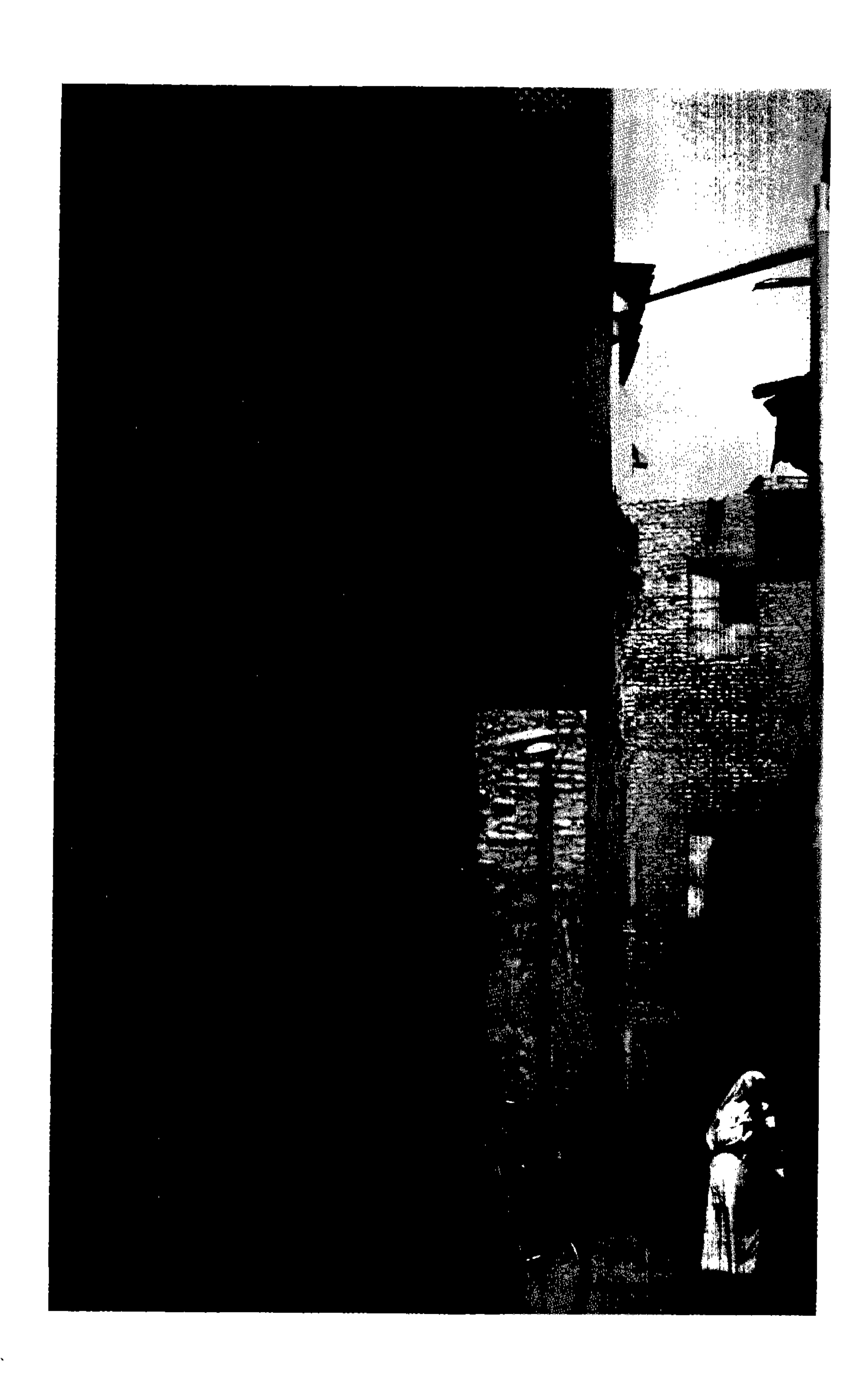
الإنسان في العصر الحديث أقام السدود ليستفيد من المياه ولكنه دفع في مقابل ذلك ضريبة باهظة وهي فقدانه لرؤية مظهر من مظاهر الطبيعة وكثيراً ما تتغذى المشاعر وتتطهر النفوس على رؤية مثل هذه المظاهر فمن لي بحياة لم تفسدها ماديات العصر ويشوهها تدخل الإنسان فيما يعد من خصوصياتها ، يبدو أن ذلك من المستحيلات ولكنه يبقى حلماً وما أجمل الأحلام بعيداً عن دنيا الواقع .

آخر الكلام :

أيها المشوق هنيئاً ما أنالوكَ من لذيذ التلاقي
قل لعينيك تهملان سروراً طالما أسْعفاك يوم الفراق

واجمع الوجد والسرور ابتهاجاً وجميع الأشجان والأشواق
ومر العين أن تفيض انهمالاً وتوالى بدمعها المهراق
هذه دراهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الآماق





(١٨)

لا زلت في « العنبرية » فيها نشأت ، أصيخ لصوت الأذان ، يأتي ندياً من منائر الحرم كنت أسأل عن أصوات « الرؤساء » نسبة إلى المنارة الرئيسية بالمسجد النبوي فعرفت البعض وجهلت البعض الآخر ، وإذا كان وقت الغروب هرعت إلى الدار ، ولكن الشباب من أبناء الحارة وخصوصاً أهل حوش « عَمِيرة » يخرجون ليلاً ويتجمعون في الساحة الممتدة بين دار « أمين شيخ » و« الزُّهدي » أسمع أصواتهم . .

وفي كثير من الأحيان يُشْجِيني ما يردِّدونه من زومال ولعلي يا صديقي نسيت أشياء كثيرة ولكنني لن أَنْسَى ما حييت التَّهليل في الطوف وتزهيد الحادي في مقدمة الركب وصوت المنشد في المجلس ، الصوت والنغم أول ما يتبينه الناشئة في البلد الطاهر ، ولهذا لم يكن غريباً أن يكثر قول الشعر في بيئة المدينة .

في دار المرحوم « عبد الله أفندي » القائمة خلف مسجد سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ والمطلّة على واجهتين أحدهما مجرى السيل من جهة قباء ، والأخرى على الباب الجديد وربما كانت مقابلة لدار آل العَشْرِي ، في تلك الدار شاهدت السَّيدين حسين وياسين إدريس هاشم ـ رحمهما الله ـ يصيخان السمع لرجل أكبر منهما سناً عرف بحلاوة الصوت وترتيل القرآن إنه الشيخ « صقر » رحمه الله .

الناس تطلب من السيدين أَنْ يُنْشِدَا وهما يلذ لهما سماع الترتيل

والإنشاد من ابن حَيٍّ « الجُبُور» رحمهم الله جميعاً .

في العيد يخرج أهـل الحارة جماعات يدخلون البيوت « يعايد » الناس بعضهم البعض ، الوجوه منهم مشرقة ، القلوب بين صدورهم بيضـاء نقية ، العـمائم فوق رؤوسهم شامخـة ، اليوم يا صديقي ، الأبواب في العيد مقفلة وأصحابها يغطون في نوم عميق ، والتليفون أقرب السبل للتهنئة والسؤال معاً .

في العصر تفتـح أبـواب الدور وقليلاً ما رأيتها موصدة في تلك الحقبة ، وصاحب الدار يجلس في المقعد وهو أول ما يصادفك عند دخولك من الباب الرئيسي للمنزل ، وبينما كنت جالساً ذات مرة وأنا في سن الطفولة مع والدي ـ أمد الله في عمره ـ فإذا برجل يسلم علينا ثم يدخـل ، أكـاد أتصور ملامحه ـ الآن ـ أسمر البشرة ولكنه جميل المحيا يشـد حزامـاً في وسـطه ، عرفت من والـدي أنـه شيخ الحي ـ إبراهيم عامودي رحمه الله ـ كان العمدة يتفقد أهل الحارة ويعينهم على حل مشـاكلهم ، لم أر الشيخ العامودي بعد تلك المرة ، ولكن جنازة خرجت ذات يوم في مطلع الثمانينات الهجرية من باب قباء فإذا والـدي ينهض من مقعـده يقول : « هذه جنازة الشيخ العامودي ، دعونا نشيع هذا الرجل إلى مثواه الأخير» .

لم يكن شيخ الحارة وحده الذي يتفقد الناس ، ولكن الناس في الحي كانوا يبدون اهتماماً كبيراً بشأن جيرانهم ، في زقاق السيد أحمد سمعتهم يتحدثون كيف أن الرجال كانوا يغيبون عن دورهم لشؤون الرزق ولكنهم لا يحملون هماً من جهة الأهل والأبناء .

في الصباح الباكر تخرج سيدة الدار متحجبة تضع الزنبيل وفي

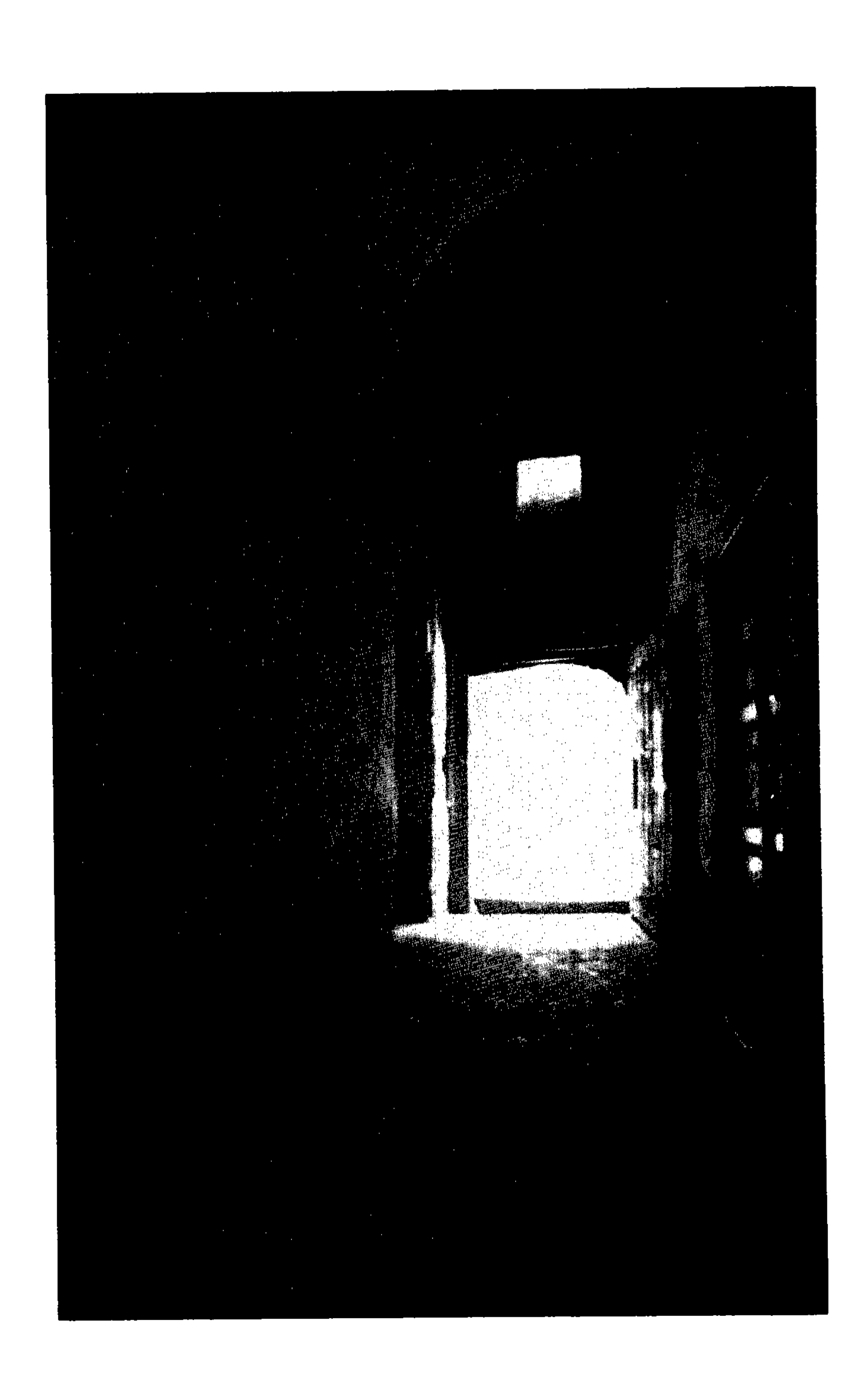
وسطه شيء من النقود ، فلا تطلع الشمس إلا وطعام الإفطار وقطعة اللحم قد بلغت أهل الدار ، في الزقاق المذكور كان المرحوم « عبد الهادي حجاج » خير من يقوم بهذه المهمة ، وهذا الواجب الإنساني .

في ليالي الصيف نصعد إلى سطح الدار طلباً لنسمات الهواء ، العليل وما أجمل نسيم قباء ! ولكن الجيران لا ينقطعون عن بعضهم البعض حتى وإن صعدوا إلى سطح دورهم ، جارتنا السيدة الكريمة من آل البكري كانت تدلي زمبيلاً صغيراً من سطح دارهم التي كانت مرتفعة بعض الشيء عن دارنا ، نفرح بالهدية إنها « الحلاوة التركي » التي كان يتفنن أهـل المدينة في صنعها ، وكثير ما كانوا يصنعون في المنـازل من الأطعمـة ، وقليل جداً ما كانـوا يجلبونه من أطعمة من السوق ، وكان الأكل في السوق عند أهل المدينة عادة غير حميدة .

آخر الكـــلام :

لم أنس أياماً لنا في قُرْبه . . وليااليا كانت زمان صفاء
بين الحمى واللابتين وفارع والسَّيح والعاقول والزوراء
بقيت لنا أشواقها فكأنها حلم مضى في عالم الإغفاء
قل للمدينة قول صب ظامىء للمصطفى ولَعِيْنها الزرقاء
أنا من علمت محبة وصبابة ليس المحب وغيره بسواء
هل لي إلى تلك المعالم نظرة وإلى جلال القبة الخضراء
ومعاهد التنزيل والبلد الذي هو منيتي والروضة الفيحاء
وإلى العقيق وعروة والعنبريـ ـة والمناخة والنقا وقباء





(١٩)

لم أكن أعرف هذا الرجل الذي كان يسكن الدار الملاصقة لدار آل الخريجي ، شديد بياض الوجه ، شديد بياض الملابس ولعل ما يميز ملابسه تلك الكوفية الأنيقة التي تشكل مع الجبة البيضاء ضرباً فريداً من اللبـاس الذي اختفى تماماً من الحياة العامة في المدينة ، يخرج هذا الرجل من داره في الباب الجديد قبل وقت حلول الصلاة فيقصد المسجد ويجلس في مقدمة الصفوف في الروضة المطهرة ، فلقد كان شيخاً للروضة هكذا كانوا يطلقون عليه في تلك الحقبة ، ولقد عرفت فيما بعد اسم هذا الرجل الذي كان يجذبني مرآه إنَّهُ الشيخ عثمان مهرجي - رحمه الله - ولقد خلفه في عمله هذا شيخ آخر من أهل البلدة الطاهرة وهو المرحوم عمر كمال ، كان نَازِحاً عن المدينة لفترة طويلة في بلاد الهند ، وحدث ذات يوم أنني كنت أَجلس في حانوت الصديق أسعد نور الذي كان مواجهاً لباب السلام ، كان الوقت بعد صلاة العشاء والشباب والشيوخ يمسكون بالمكانس ينظفون مسجد رسول الله ﷺ وشيخهم من آل طاهر يسير خلفهم ليشرف على أداء عملهم وإنـه ليشتـد حيناً عليهم فتحس أنهم يخافونه ويرفق بهم حيناً آخر فيمازحهم ويداعبونه ، في ذلك الوقت الذي كان يخيم الهدوء فيه على كل ناحية من نواحي المدينة ، سمعني الشيخ - كمال - أردد أبياتاً من قصيدة سعد الدين عبد الجليل برادة المعروفة والتي يقول في مطلعها :

عن در مبسمها عن دمع أجْفاني　　عن الشقيق كذا عن خدها القاني
عن المحيا عن البدر المنير وعن　　سود الغدائر عن ليلات أشجاني

وهي قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه « المدينة » عندما كان مقيماً بأرض الشام وقد كف بصره ، وما إن انتهيت من ترديد بيات هذه القصيدة التي كان كثيراً ما يترنَّمُ بها أصحابُ الأصوات الحسنة في بلد الرسول ﷺ حتى رأيت الشيخ كمال رحمه الله يزيح نظارته ليمسح دموعاً انسكبت من عينيه ، ونظر إليَّ ملياً يطلب مني أن أعيد على مسمعه الأبيات ولعلي عرفت منه أنه عاصر الشاعر سعد الدين الذي قضى فترة من حياته متنقلاً بين أقطار عديدة ، وقد أخبرني المرحوم الشيخ جعفر إبراهيم فقيه ـ رحمه الله ـ أن سعد الدين هذا ووالد الشيخ جعفر قد أصهرا من أسرة واحدة من المدينة . .

لقد عرفت العنبرية بدورها التي احتضنت أهل الفضل والعلم والمعرفة والشيخان سعود ومحمود دشيشة كانا يسكنان هذا الحي ، آل موسى الذين اشتهر منهم الكاتب علي موسى صاحب الرسالة الهامة في تاريخ المدينة والتي قام بنشرها الشيخ حمد الجاسر وقدم لها المرحوم السيد عبيد مدني ودار آل موسى ما زالت تقوم على مدخل الهاشمية على يمين الصاعد لباب العنبرية وعلى وجه التحديد أمام الدار العامرة للسيد حبيب محمود أحمد ، ودار الشيخ إبراهيم حسوبة ـ رحمه الله ـ وعلى مدخل زقاق السلطان كانت تقوم دار آل عامر ، الشيخ حسين عامر ـ رحمه الله ـ والد الشاعر الأستاذ علي عامر أمد الله في عمره ، كان من رجالات المدينة المعروفين .

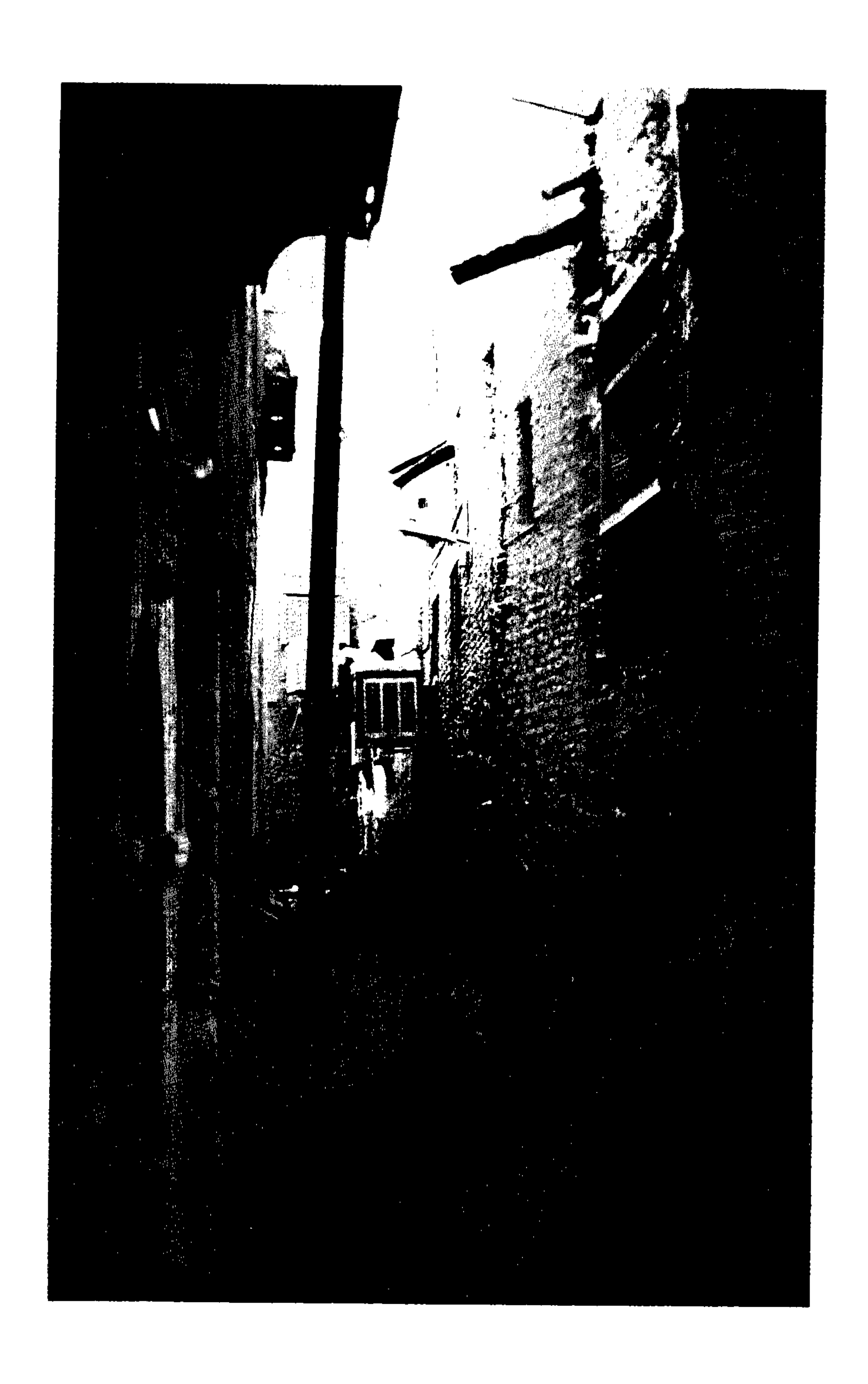
على مشارف المسيل الذي كان يطيب للناس رؤية المياه وهي

تنحـدر بين جنباته ، نشأ رجال ساهموا في نهضة هذه البلاد والرقي بفكرها وإثراء سبل المعرفة فيها في مقدمتهم معالي الدكتور رضا بن محمد سعيد عبيد والذي كان والده الشيخ محمد سعيد عبيد ـ رحمه الله ـ من وجهاء المدينة وأهل الفضل فيها ، ومنهم الصديق الدكتور السيد هاشم عبد الله يماني الذي سكنت أسرته الكريمة هذا الحي حقبة من الزمن وعلى وجه التحديد في حوش مناع الذي ما زال يقوم جزء منه على مدخل باب قباء ، ولا بد أن أشير إلى أن السيد عبد الله يماني أمـد الله في عمره نشر العديد من كتب السنة النبوية وكثيراً ما جلست بحكم زمالتي وصداقتي لأبنائه الكرام ، إلى السيد المذكور في مكتبته التي كانت تقوم بالقرب من الحرم النبوي الشريف وكان ـ شافاه الله ـ صديقاً لعدد من علماء الحرمين الشريفين وآل الخطاب ـ أصهار آل اليماني ـ كان بعضهم يسكن حي قباء وقد عرفت المرحوم الشيخ عبد المجيد خطاب والد الأستاذ الدكتور عِزّت خطاب وكان صديقاً لعبد الستار بخارى والأفندي محسن بري والشيخ حسين برادة رحمهم الله جميعاً والشيخ عبد المجيد واحد من الرجال الذين ساهموا في أندية الأدب ومنتـدياتـه التي كانت تعقـد في رحاب البلدة الطاهرة ، لقد ارتفعت كلمة الإيمان من فوق سمائها وشع نور العلم من بين سواري مسجـدهـا وولدت الكلمة الشاعرة بين ظلال نخيلها ، وسوف يأرز الإيمان إليها كما تأرز الحية إلى جحرها كما أخبرنا بذلك أصدق القائلين وسيد المتحدثين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

آخــر الكلام :

هذي المدينة قد بدت أعلامها والعنبرية بابها المأهول
فاملأ عيونك من بلاد قد ثوى فيها النبي وقد مشى جبريل

تجري العيون بها زلالا صافياً سيحون يأسن عندها والنيل
فيها النبي وصاحباه وآله ومزاره والوحي والتنزيل
والقبة الخضراء فيها قد غدا منها على رأس العلا إكليل
يا أهل طيبة حسبكم بجواره بلد تشد له الرحال جميل
أنواركم سطعت وتالد مجدكم باق وليس لفضلكم تحويل
وأنا المدين لك بحسن صنيعكم ما في المدينة يا سعاد بخيل





يظهر طرف من مَبْنَى رباط المَيْمن المشهور والذي بنيت واجهته من الحجر المنقوش

(٢٠)

أقـطع هذه المسـافة بين « كوبري المدرج » ومدرسة دار العلوم الشرعية حيث والدي ـ رعاه الله ـ حبذ لي أن أدرس ، أجيل بصري في سماء المدينة الصافية ، أرى منائر المساجد ترتفع هنا وهناك ، وبيوتاً من الحجـر المنقـوش وخصوصاً تلك التي كانت تقوم خلف مسجد « الغـمامة » ـ بعضها يعود لآل الخريجي ـ حزنت كثيراً عندما علمت بهدمهـا كيف يهدم الإنسـان تاريخـه ، ويتخلص من مواضـع حبـه وألفته ، في الجهة المقابلة لمسجد الغمامة كانت تقوم دار كبيرة ـ وكانت مسكناً لغالبية آلي البري ـ وهي أسرة عريقة في البلد الطيب ، برز منهم العلماء والأدبـاء وعـرفت منهم شخصياً نفراً كريماً « كالأفندي محسن بري » ـ رحمه الله ـ والد الصديق الأستاذ « إحسان بري » كان أنيقاً في ملبسه ، عذباً في حديثه ، موفقاً في أعماله ، طالما جلست إليه في داره التي كنت أعدها في تلك الحقبة بعيدة عن دارنا في قباء ، فلقد كانت دار الأفنـدي تقوم خارج باب الشامي على يسار الصاعد إلى طريق « سلطانـه » وليس بعيداً عنها كانت تقوم دار الأديب والمؤرخ السيد أمين عبد الله مدني ـ رحمه الله ـ كما عرفت من آل البري الشيخ عبد الجليل بري ، وكانت داره تطل على شارع المناخة ، كان حفياً بالناس في داره ، وكثيراً ما رأيت السيد حسين هاشم ـ رحمه الله ـ مع ثُلَّة من الأصدقاء يترددون كل عشية على الدار التي كانت تطل على أشهر

شارع في المدينة وأكثره حركة وأشده صخباً .

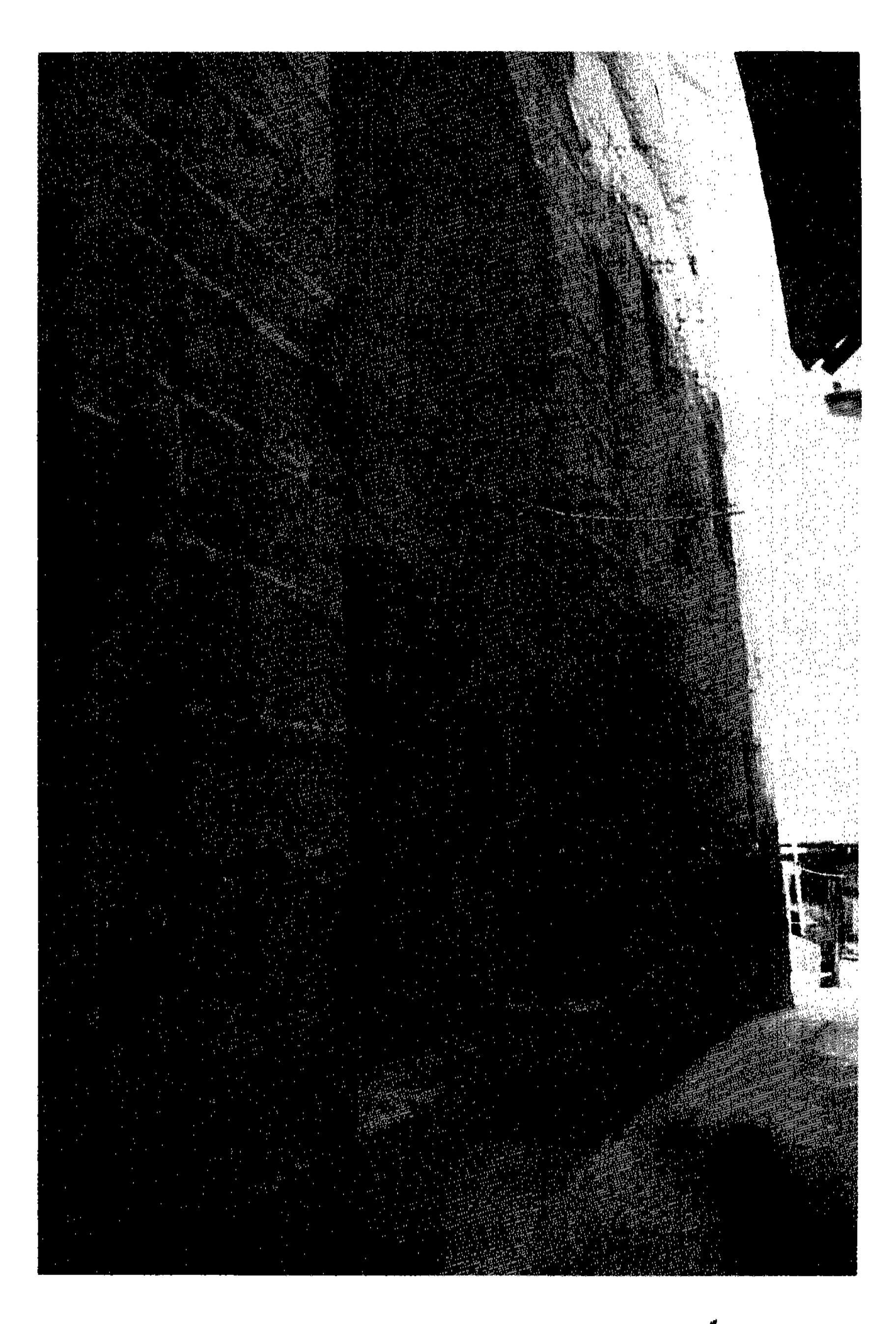
ألج سوق « الحبابة » ولم يكن مختصاً فقط بأصحاب الحوانيت الـذين يبيعـون الحب ، ولكنـه كان يضم على جانبه الأيمن بعض حوانيت « العطارة » ـ بائعي التوابل والأعشاب الطبية القديمة ـ وعلى جانبـه الأيسر أصحـاب الحـرفة المختصة بصنع أثاث المنازل أو من نسميهم « بالمنجِّدين » ، وسـوق الحبـابة هذا كانت تظلله أشجار « السِّدْر » يخرج الشباب من الحارة يبحثون عن الحمام يصيدونه وعن النبق يلتقـطونـه ، ومن هذا السـوق كان ينـطلق أهل المدينة بموتاهم وهم يحملونهم على أكتافهم إلى يمثواهم الأخير في « البقيع » .

أشياء عديدة ـ يا صديقي ـ لا تحتفي بها الذاكرة وأخرى تستقر فيها ولا نعلم السبب في ذلك لم أنس ذلك الرجل القصير القامة ، الأسْمر السحنة ، حزامه في وسطه ، يمسك « بالمنخل » بين يديه لينخل به الحب ـ ربما كان الوقت قبل حلول شهر رمضان ـ وكثيراً ما كانت الناس تحتاج الحب في هذا الشهر الكريم ، ولكن فجأة يضع الرجل ـ المنخل ـ لقد رأى جنازة تمر من أمامه في السوق ، وإني لا أكاد أسمعـه وهـو يقـول بصـوت مرتفع « الموت يا غافل » تراه من كان يخاطب ، أصحـاب الحـوانيت المشغولين بشؤون دنياهم ؟ أم يذكِّر نفسـه بحقيقـة الحياة ؟ ليتـك أيهـا الرجل المطبوع على الفطرة تعود ـ اليوم ـ فترى كم شُغِلْنا بالدنيا ! ، وكم سعينا وراء السراب ! . كم قبضنا على الريح ! . ، ليتك تعود ـ اليوم ـ تُسْمِعْنا مقولة لم تتعلمها في مدرسة أو تقرأها في كتاب ! لكنك ـ وأمثالك ـ من ذلك الجيل ، ترشدكم الفطرة فتصوغون خطابكم بعيداً عن الكلفة وأسباب الصنعة والتزويق .

يا صديقي أنـا أقف الآن على مدخل « باب المصري » لقد غيب الموت أهله ، ولكن صورهم لم تغب عن ذاكرتي فهي حفية بها ، دع القـوم يتحـدثـون فأنـا ما زلت أسمعهم ، ودعنم يبيعون ويشترون فأصواتهم أقرب ما تكون إلى قلبي ، ولكني لن أدخل بك اليوم ـ إلى عالم « سويقـة » و« جوَّة المدينة » ورباط « الشَّامي » و« مقعد بني حُسين » ووكالة « الرَّفة » و« الكاموخ » .

تلك المعـالم سوف يكـون لنا معها حديث نستنطق به أخبارها العذبة ونقف من خلاله على أسرارها الغريبة ، فحتى يحين موعد ذلك الحديث أدعوك معي لتسمع صوت هذا الحادي الذي ينشد قائلاً :

ملأ الشوق مهجتي ويديا	وهداني الهوى صراطاً سويا
بت أشكو لقائد الركب وجدي	وغرامي فقال : حث المطيا
لترى طيبة وتطفىء نار	الشوق فيها إذا رأيت النبيا
من بشيري بالوصل في الحب أني	أتلظى على البعاد قصيا



مبنى مدرسة الشِّفاء بحارة الأغوات ، وبينما تطلّ واجهتها على هذا الشارع الداخلي للحارة ، يصلها منفذ بالشارع العام المؤدِّي إلى ساحة باب السَّلام



صورة تُظْهِرْ عن كثب قُبَّة حَمَّام طيبة

(٢١)

أقف بك ـ الآن يا صديقي على مشارف باب « المصري » ولعل التسمية جاءت من ارتباط هذا المكان بالحاج المصري ونزوله فيه ، وهو واحـد من أبواب سور المينة الذي كان آخر بناء له في عه السلطان سليمان العثماني وذلك في سنة ١٩٤٦ هـ كما يذكر ذلك المؤرخ المعروف الأستاذ / عبد القدوس الأنصاري ـ رحمه الله ـ وأميل إلى أن الاسم الـذي كان يطلقـه النـاس على السوق الذي يبتدىء بهذا الباب ، والاسم هو « جوة المدينة » يدل على أن ما كان خارج هذا الباب يعده النـاس في تلك الحقبة الماضية من أطراف البلدة ونواحيها البعيدة نسبياً عن دائرة الحياة ومركز النشاط التجاري فيها .

تدخـل هذا السوق المسمى في كتب التاريخ باسم « الحدرة » والذي يعود تاريخه إلى عصور الإسلام الأولى ، فتشعر بالنسمات الندية المنبعثة من أرضه المبلطة بالحجارة ، ولقد أدركت في بداية نشأتي قوماً يحملون الماء في « القربة » يرشون به الأرض ، وكان بعض من هؤلاء القـوم يجلبـون ماء بئـر « عروة » المشهورة ويبيعونه للناس في أسواق المـدينـة ، وسـوف تجد في هذا السوق صنوفاً متعددة من الحوانيت بعضها تخصص في بيع العطور والآخر يبيع الملابس أو الذهب وعرفت في هذا السـوق حانوتاً لرجل من وجهاء المدينة كانت تربطه بوالدي روابط المحبة والألفة وهو السيد أحمد محضار ـ رحمه الله ـ .

وتنتشر في هذا السوق أماكن تسمى « بالوكالات » أشهرها وكالة « آل الرفة » وهي الأسرة التي ينتسب إليها الشاعر المعروف الأستاذ / عبـد الـرحمن رَفَّـه ـ أمـد الله في عمـره ـ ، وفي تصـوري أن هذه « الوكالات » ربما كانت أشبه بالنزل التي يقيم فيها بعض الزائرين عند قدومهم إلى المـدينة ولقد قرأتُ أن هذا النَّوع مِنْ «النّزل» يوجد في بلاد عربية أخـرى كمصر والشام ، ولكن لا بد من القول أن بعضاً من الباحثين توصل إلى أن تصميم الأسواق في حواضر العالم الإسلامي والعربي كان مستمداً في الأصل من أسواق المدينة بحكم موقعها الدِّيني منذ هجرة الرسول ﷺ واتخاذها عاصمة من بعده في عهد الخلافة الراشدة .

الصديق الفاضل الدكتور غازي مدني ذكر لي أن دارهم كانت تقوم في هذا السوق ـ ولا أعرف شخصياً موضع هذه الدار ـ ولكني أدركت منذ الصِّغر أن لهذه الأسرة الكريمة التي برز منها في هذا العصر الأديبـان عبيد وأمـين عبـد الله مدني وشـاركـا في حياتها الاجتماعية والفكرية مشاركة إيجابية وفعالة ، أن لها دوراً في هذا السوق وكذلك في الناحية الأخرى القريبة من الشارع الذي كنا نسميه ـ درب الجنائز ـ .

لم تكن الوكالات وحدها أو الدور المنقوشة بالحجارة والمطلة على السوق هي كل ما يميز هذا المعلم الذي يعد من المعالم البارزة للمدينة القديمة ، بل هناك معالم عديدة لا نستطيع وفقاً للمساحة المحددة لهذه المقـالـة ـ أن نسهب في وَصْفهـا أو الحديث عنها، ولكن لا بد للإشـارة إلى معلمين هامين كانا يقومان قبل نهاية السوق من ناحية سوحة باب السلام ، أولها زقاق كان يعرف باسم « الزَّرندي » وكان يسكنه بعض من أسرة آل الأنصاري ، وهي من الأسر العريقة ـ نسبة

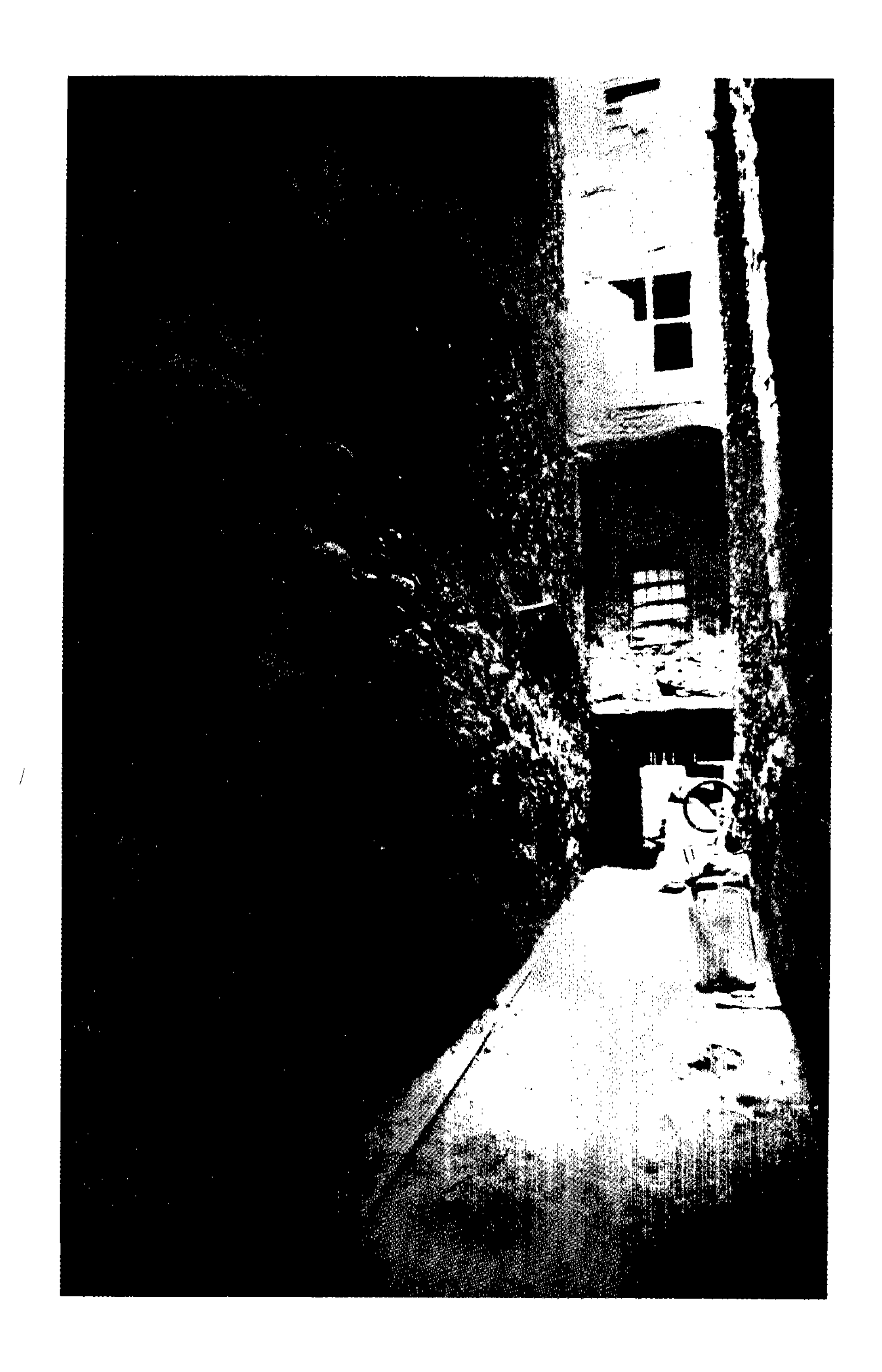
إلى الأنصـــار الـذين نصروا النبي ﷺ ، ولقـد أدركت الشيخ حمزة أنصاري ـ رحمه الله ـ الذي كان يقيم في ذلك الزقاق وهو أخ لعثمان وعلي أنصاري ـ أمد الله في عمرهما ، وربما وجدت ارتباطاً بين اسم هذا الزقاق وبين سكن نفر من آل الأنصاري فيه ، فصاحب « تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب » يذكر أن بيت الأنصاري « يعرف قديماً ببيت الزَّرندي نسبة إلى زَرَند وهو كما ينقلُ عن الفـيروز آبـادي في كتـابه المعروف « المغانم . . . المستطابة في معالم طابة » قرية من أعمال المدينة المنورة من جهة الشمال بقرب وادي القرى والفيروز آبادي ينقل ذلك عن شيخه عبد الله محمد بن يوسف الزرندي الأنصاري ـ محدث حرم رسول الله ـ ﷺ .

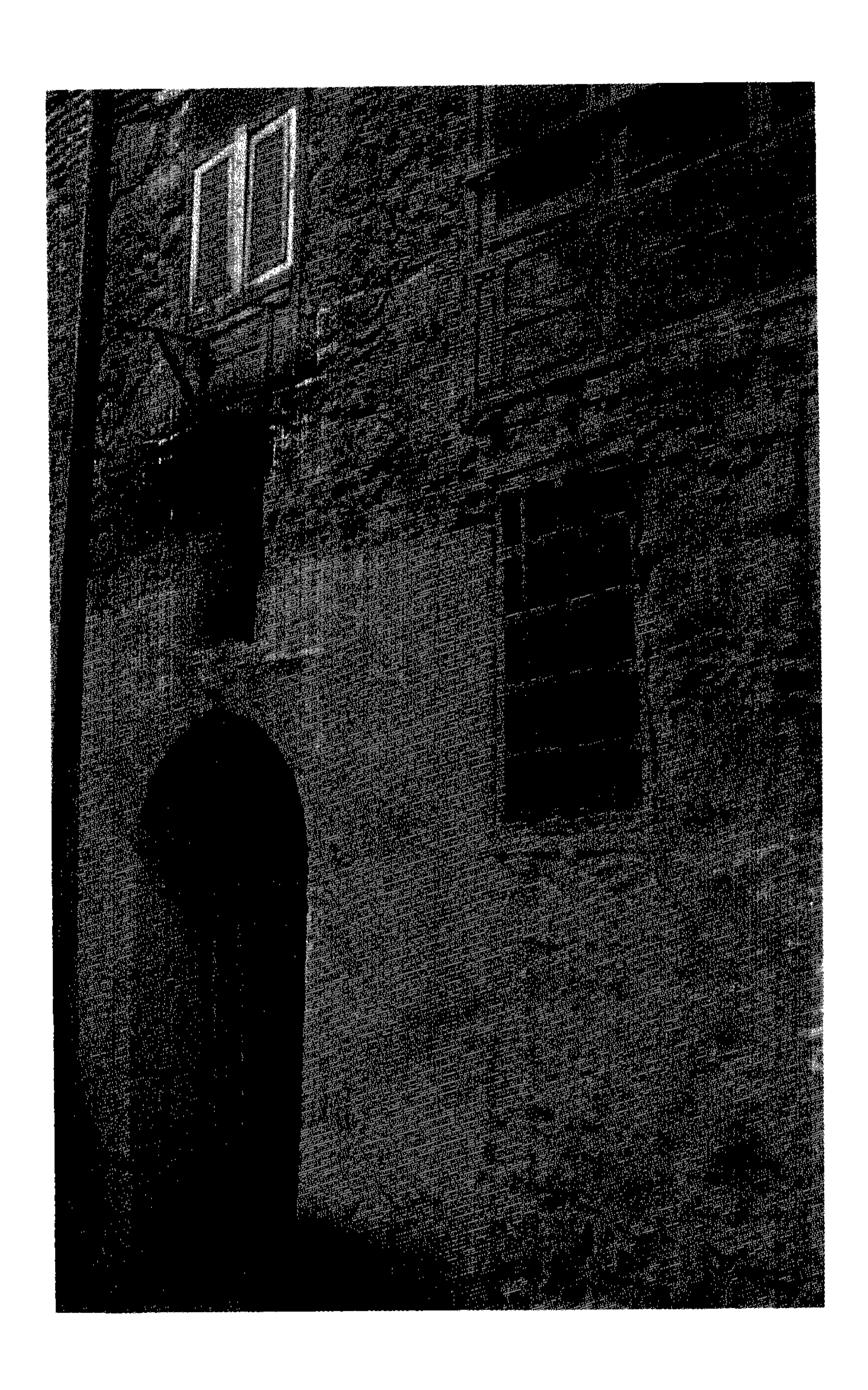
أما المعلم الثاني فقد كان يقوم في الجهة المقابلة لزقاق الزرندي ، فهذا الأخير كان يقع في الجهة التي على يمين القادم من أعلى السوق إلى أدنـاه متـوجهـاً إلى الحرم النبوي ، والمعلم الآخر كان في الجهة اليسرى ، وهـو « رباط » كانت غرفهُ تطل من الناحية الأخرى على شارع العينية ، ولما سألت زميل الصبا الأستاذ عبد الرؤوف طاهر عن اسم ذلك الرباط أجابني بأنه يعرف باسم الشام أو الشامي .

خاتمـــة

هاتفني مشكـوراً السيد : علي بن حسـين عامر وهو واحد من الرجال الذين يعرفون المدينة ومعالمها وتاريخها معرفة دقيقة ، وصحح ـ جزاه الله خيراً ـ معلومـة أوردتها في الحلقة (١٩) وتتصل بموضوع منـزل جَدِهِ السيد عامر ـ رحمه الله ـ في حي العنبرية الذي يقع كما يذكرنا أستاذنا في أول زقاق « العبيد » ثم يليه منازل آل موسى وآل جعفر ، كما أضاف لي معلومة لم أعرفها من قبل وهي أنه كان للشيخين محمد وسعود أحمد دشيشة أخ آخر يعرف باسم عبد الله .

فجزى الله أستاذنا الكريم خيراً وأطال لنا في عُمْرِهِ . .

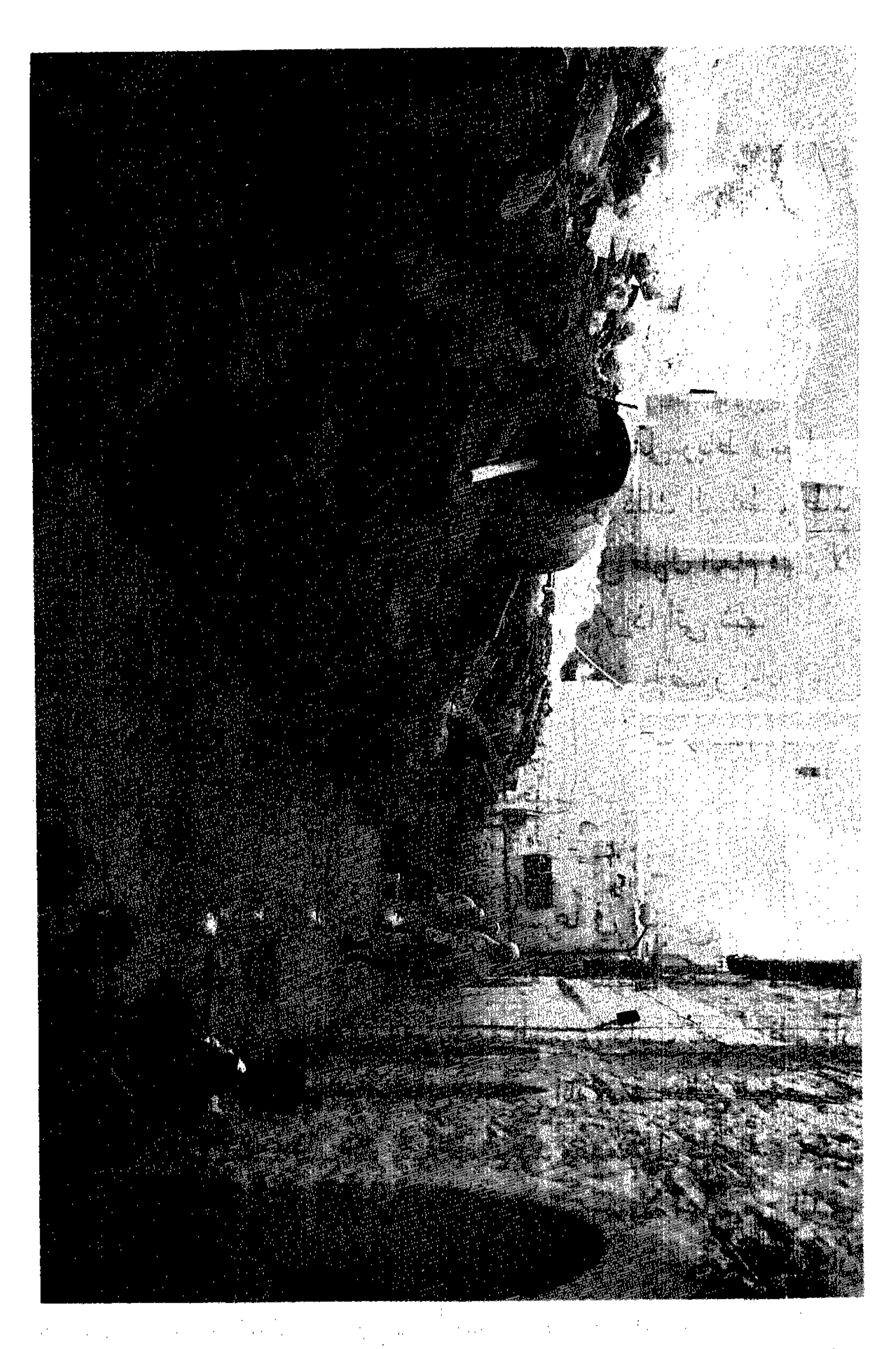




(٢٢)

في حارة الساحة كنت أتردد بين الحين والآخر على رباط « بودل » ـ صديقنا المرحوم ـ محمد عبد المؤمن ـ كان يسكن ذلك الرباط ، طالما حدَّثني عن امرأة مهاجرة في حب الله ورسوله تعمل طوال العام فهي لا تعيش كما يقال إلا من عرق جبينها وكَدٍّ يديها ، وإذا أتى شهر الربيع أقـامت مأدبـة في سبيل الله ، الإخوان يتسابقون لحضور الجلسة ، الغرفة الصغيرة في الرباط تتسع لذلك الجمع ، والعجوز تصر على أن تطبخ بنفسها طعام الأحباب ، الكل يتحدث عن مائدتها ويثني على صنعتها في الأكل .

في الحارة أيضاً طالما حثثتُ الخَطْوَ مسرعاً في الشارع الذي كان يقـوم في بدايتـه من الجهـة اليمنى مكتبة « عارف حكمت » وكانوا يُطْلِقُون عليها « كتب خانة » وفي الجهة اليسرى كانت تقع أعظم دار في التاريخ دار أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ والتي احتضنت المصطفى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ عند مَقْدمه إلى المدينة ، حتى إذا ما جاوزتُ السَّقيفة في ذلك الشارع الضيق ـ ولا أعلم من الذي أخبرني أن عالم المدينة وشاعرها المعروف « عمر بري » ـ رحمه الله ـ كان يسكن في ذلك الشارع ، وليت الصديق « عبد المجيد برِّي يوثِّق لي معلومة كهذه ، نعم إذا ما تجاوزتُ السقيفة توجَّهتُ صَوْبَ الرباط الذي كان يسكنه صديقنا « محمود عيسى » ـ رحمه الله ـ والده كان من



الـطَّريق إلى حَمَّام « طيبـة » وهـو البناء الذي ترتفع فوقه القُبَّة الجصَّصة ، وإلى اليمين يبدو مَدْخل أحد الأربطة التي كانت تنتشر في أنحاء الحارة

خيرة المهاجرين في المدينة ، يستدين الناس منه لأنه كان صاحب حانوت في سوق الفاكهة « القديم » وقبل موته تخلص من كل « سندات الديون » وأعلن أنه سامح أصحابها ، ما أكرم الحديث عن رجال كهؤلاء ، وما أطيب الحياة التي عاشوها .

بعد طلوع الشمس ، وحلول وقت الضحى الجميل ، وبين الدكة وباب جبريل ، حيث يسطع النور وتتجلى الإشراقات ، قابلت صديقي « الزين » . طلبت منه أن يجلس ، الحرم هو المكان الذي يجمع شملنا ، وقراءة السيرة هي وثاق المحبة بيننا ، فإذا هو يطلب مني أن أذهب معه لنزور صديقنا « ابن عيسى في الرّباط المذكور ، ولما سألتُه لماذا هو متعجل في هذه الزيارة قال : « الزّين » ! البارحة رأيت محموداً في المنام قد حلت عليه رحمة الله ، ولا بد لي أن أُبَشِّره ، سِرْتُ بجانبه لا أسمع إلا تمتمات الذكر من شفته ويوم بلغنا ذلك المدخل الطويل الذي يصل باب الرباط بتلك الغرف المتناثرة على جوانبه بادرتنا أصوات تنتحب بالبكاء ، لقد مات « محمود » وإذا الزين ينظر إلي قائلاً ، تلك رحمة الله يا بُنَيَّ .

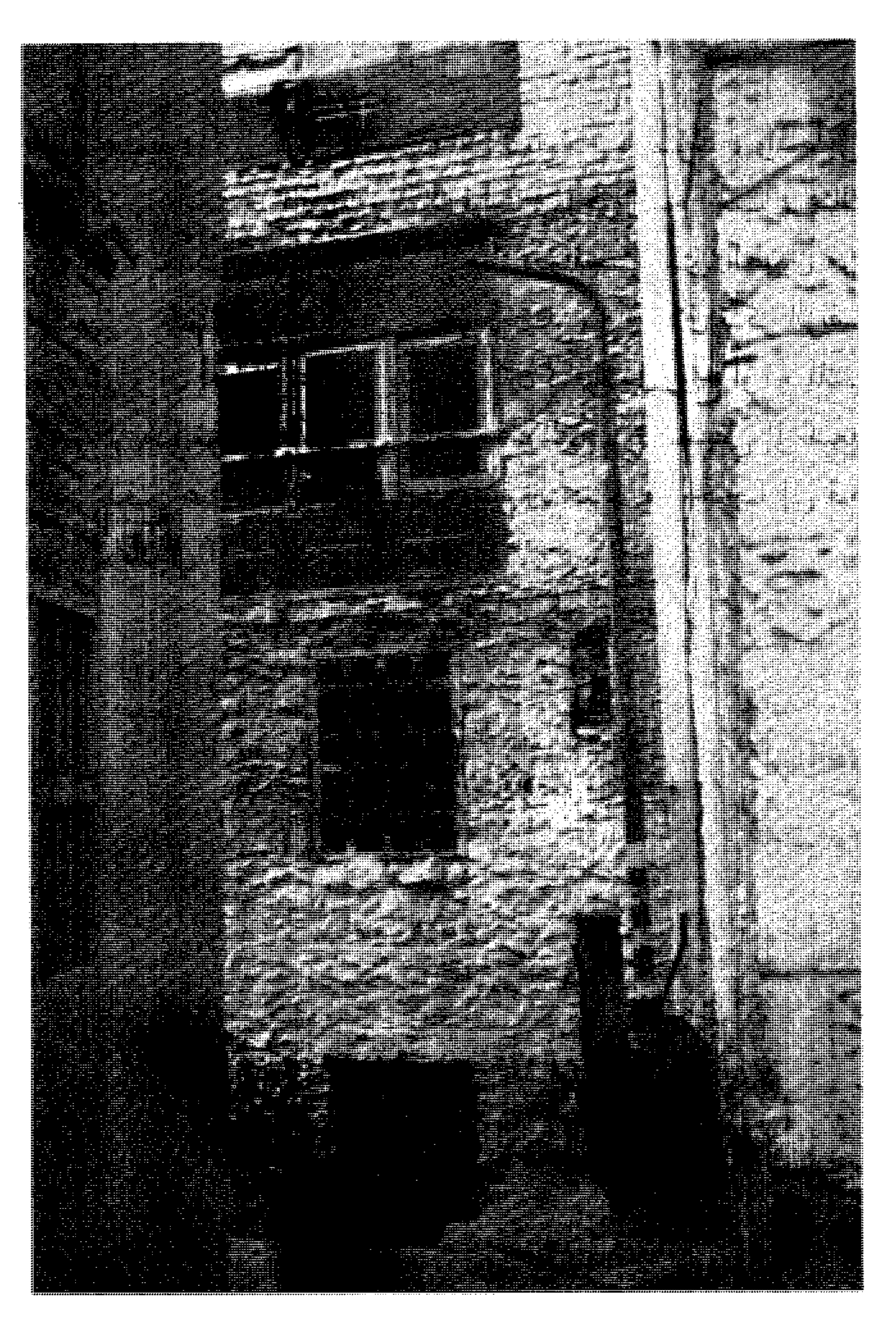
« يا زين » حَدِّثني عن من غيَّبتهم الدار ، حدثني عن الليل جميلاً بين الحارة والمزار ، حدثني عن فلق الصبح من بين غابات النخيل في رباقبا وقربان ، حدثني عن مجالس انتفت عنها الأكدار ، والسنة تتهيب الدنو من لغط القول وتسأل المولى موجبات الرضوان ، حدثني فالوحشة تملأ قلبي وكثيراً ما تُبْكيني الفُرْقة ويؤرِّقني فِرَاقُ الأحباب .

يا أبا الفيض ، يا جَليسي في الرَّحبة بين باب السلام وباب الرحمة ، يا مُسْتنداً على عَصَاهُ بالقُرْبِ من الحضرة ، أعْياني البَحْثَ

عنك وكنت أَلْفَاكَ قريباً من دور الأحباب ، والقمر يرسل شعاعه في سكـون الليل ، حتى إذا انفتـح البـاب كنت المسرع إلى الـروضة والسائل من رب العباد الرحمة ، يا صديقي « كامل » كم كنت تقف في شارع العينية تطلب من الناس أن يديروا ظهورهم للدنيا ، تسلك الـدروب الضيقـة وتنتقـل بين الجمـوع المحتشـدة ثم تطرق أبواب المحتاجين وتواسي المعدمين ، تقضي الليل ساهراً والناس نيام ، وفي الصبح يجدونك بين « الحلّة » والساحة ، تدعوهم أن يخرجوا الصدقة فيزكـوا نفوسهم ، ويعينوا ضعيفهم ، ويتفقدوا مريضهم ، بالأمس كنت تذكـر القـوم وهم أقل اشتغالاً بالدنيا ، بالأمس كنت تسألهم فيجيبـون وتـدعـوهم فيلبـون ، ليتك اليوم تعود فتذكرهم بالرحمة ، لتنـزعهم من همومِ الدنيا ، لقد نَضبتْ يا صَديقي دفقاتُ الحُبِّ في نفـوسنـا ، وصوَّحَتْ أزهارُ في دواخلنا طالما سقيناها بالذِّكْر ونميناها بشعاع الروح ، وحصنَّاها بنور الإيمان ، اليوم يا صديقي ندفن موتانا ثم لا نلبث أن نتحدث عن رصيدنا من الدنيا ، ونزور مرضانا فلا نجد ما نشغل به الوقت إلا الثناء على متاع الدنيا المستعار وخروقها البالية ومساكنها الباذخة والتي كل حظنا منها شقوق نتطلع منها إلى من يطرق أبـوابنا فمن أحببناه أجبناه ، ومن لا تربطنا به منفعة دفعناه ، لقد ذكَّرتني يا صديقي« بِحَبْلِ الباب » ، الذي كنا نشدُّه إلى أعلى فينفتح الباب أمام القادم ، لا نسأله لماذا قدم إلينا ، وكم من الوقت يقضيه بيننا ، وجوه أهل الدار لا يعتريها عبوس ، وأيديهم مبذولة بالعطاء ومن دخـل دار صديقـه تبـددت عنـه هموم الدنيا وزال عنه عناء النفس واطمأنت جوارحه برؤية الأحباب .

يا صديقي في دار الحلبي ـ رحمه الله ـ وفي زقاق الطوال ، رأيت

القوم يجتمعون لأول مرة ، سمعت المنشد يصدح بالصوت ، والمجلس يختم بترتيل آيات من الذكر ، هناك قرأت في وجوه القوم الحب ، هناك في طيبة تغذَّتْ روحي من نبع الإيمان وصافحت يدي الطيبين من الناس . لهم قلوب لا تنطوي على حقد ، وأخلاق تنكر الزيف والغش ، أن أحبوك اعلموك بالحب ، إن تنافرت الأرواح أو اختلفت الآراء لم يضايقوك أو يؤذوك ، ما أحوجنا ـ اليوم ـ يا صديقي إلى سعة أُفق تدفع عنا أَشْبَاح التعصب وأوهام التحيز ، ما أحوجنا إلى قوم يؤمنون بأن في الحياة متسع للجميع .



ارتفاع مستوى الشارع عن مَدْخل المنزل يدلُّ على قدم منطقة حارة الأغوات فكل طبقة مِنْ طبقـات الأرض تُمثِّلُ عَصْراً مُحدَّداً من العصور منذ بناء المسجد النبوي الشريف في العهد النَّبوي ، وقيام البناء حوله

(٢٣)

في حارة الأغوات وبعد أن نجتاز سبيل « المنادي » في طريقنا إلى « البقيع » كان يقع رباط « ياقوت المظفري » والذي يعود بناؤه إلى بداية القرن الثامن الهجري « ٦٠٧ هـ » كما كانت تشير الكتابة المنقوشة على بابه ، في ذلك الرباط كان يسكن نفر من المهاجرين ، عرفت منهم الحاج عبد الله وصديقه الحاج النور ـ رحمهما الله ـ محافظان على أداء الصلوات في المسجد النبوي مع أنهما فقدا نعمة البصر في آخر حياتهما ، لا يعرفان من المدينة إلا دكة الأغوات « في المسجد . . و « الرُّستمية » في الحارة ، يؤمان هذا الموضع الأخير بعد عصر كل يوم حيث يلتئم الشمل ، ويطيب الحديث ويتذكر القوم أياماً خلت وعهوداً انقضت .

ذات عام من الأعوام ، وفي يوم عرفة حيث تنطبع أجواء المدينة بهدوء غريب ويخيم عليها طمأنينة الإيمان وسكينته ، الصلاة تقام في المحراب النبوي بالروضة وصفوف المصلين قليلة العدد ، في ذلك اليوم الـذي يعود إلى بدايات التسعينات الهجرية ذهبت إلى « الرُّستمية » فهي المكان الذي كنت أحمل إليه كتبي حتى تتسنى لي فرصة القراءة والاطلاع وهي موضع أنسي وجلاء خاطري ، وكان يشاركني هذا الشعور من بين أصدقائي الأستاذ أسامة أحمد السنوسي ، فشاهدت يومها الأستاذ أحمد عثمان ـ رحمه الله ـ واحد من جملة أساتذتي في دار

العلوم الشرعية ، يدخل من باب المبنى العتيق يقبل رؤوس كبار أهل الحارة « طيفور ، والعم حسب الله » ويقول : « كُل عام وأنتم بخير » أنتم بركة الحارة . . وتطفر دمعة من عيني على هذا الشعور الإنساني الرفيع وهذا التواصل الذي كان سمة من سمات مجتمع بلد المصطفى ﷺ بكل طبقاته .

وبالمناسبة فأستاذنا أحمد عثمان هو شقيق لأستاذ الجيل عبد الرحمن عثمان - رحمهما الله - وكان هو الآخر مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية ، وكان شاعراً مجيداً ، قرأت له شيئاً من شعره في مدح الرسول ﷺ ، ولعلي عرفت مما قرأت له المنبع الذي تتدفق منه شاعرية صاحب « واستوت على الجودي » ابنه الأستاذ الدكتور أسامة عبد الرحمن عثمان ، وشقيقه أنس ، صاحب « الموانىء التي أبحرت » وإذا كان أسامة وأنس شاعرين مجيدين في زمن أصبح قول الشعر فيه لكل من هب ودب ، وأصبح يلج ساحته كل متطفل وجاهل ، وهذا من جناية بعض صفحات الثقافة التي أضحت تعني بالغث ، وتستبعد الأصيل ، وتمعن في إفساد الذوق تحت مسميات الحداثة والغموض .

إذا كان المذكوران شاعرين مطبوعين فإن أخاً ثالثاً لهما يملك مقومات الناقد المتمكن ، والباحث المتعمق في آداب اللغات الأخرى ، وهو الصديق الدكتور نُعيمان عثمان ، ولكن نُعيمان مثل إخوته الكرام يؤثر الصمت ويكره الضجيج . مع أن الساحة النقدية في حاجة إلى معرفته واطلاعه بعد أن كثر الأدعياء الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويدعون الاطلاع على آداب الأمم الأخرى وهم لا يفقهون من أبجدياتها شيئاً ، بإمكانهم أن يتحدثوا في كل شيء لكنني أتوسل إليهم أن يصمتوا فنحن أحوج في هذا الحقل إلى مقولات المتخصصين.

فيه من أمثال الدّكاترة عزت خطاب وسعد البازعي ونعيمان عثمان الذي دفعنا الحديث عن أسرته إلى هذه العطفة حول هذا المطلب النقدي الهام .

في باب المجيدي عرفت رباط « عزت باشا » لا أعلم إذا ما كان وقفه ينتمي لأسرة أسعد العابد مستشار السلطان عبد الحميد آخر سلاطين الدولة العثمانية الذي اتخذ من هذا الأخير ومن السيد أحمد أسعد الجد الأكبر لأسرة آل أسعد مستشارين له في الآستانة ، ولم أعرف الرباط وحده ولكنني عرفت أيضاً بعض ساكنيه منهم إبراهيم ولي ـ رحمه الله ـ الذي كان شيخاً للرباط ومن قبله كان الشيخ عبد الله الرفاعي ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ لم أدرك هذا الأخير ولكني عرفت عدداً من أبنائه منهم الأستاذ زكي الرفاعي وأخوه سليمان .

لقد غاب عن عيني رجل من المجاورين اسمه عثمان كنت دوماً أراه بالقرب من شجرة السدر التي كانت تقوم في سوق الفاكهة والذي هو في الأصل موضع « الخان القديم » في المدينة ، عثمان كان مع مجموعة من أصحاب القلوب الطيبة يقوم بطحن الحبوب بوسيلة بدائية كانت موجودة في الحقبة الماضية في المدينة وهي المهراس الذي يصنع عادة من الخشب، ولكن الذي أغراني بالحديث عن عثمان الذي علمتُ من أحد أصدقائي أنه توفي قبل شهور بعيداً عن الأرض المحبوبة ـ على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ نعم أغراني عدم احتفائه بالدنيا وزهده في متاعها الفاني ، كان يمشي حاسر الرأس ، حافي القدمين ، لا يكاد يلتفت إلى شيء ، ولكنه مثل بقية المجاورين ، جاءوا إلى هذه الأرض حُبًّا في ساكنها فهم المتأدبون في جواره ، والمتبعون لسنته والنافرون من كل دعاوى الجهل وسبل الباطن .

حدثني يا صديقي أين اختفت الوجوه ، وكيف تفرق الجمع ، أسمعني صوت الحادي فلطالما أثار في نفسي الشوق وانتزع من عينيّ الدَّمْع ، وأغرقني في بحر الحب فنفسي قد كبلها القيد ، والقيد يا صديقي من صنع نفسي وآثار يدي ، متى نتطهر من حب الدنيا الذي تملكنا وتلبس مشاعرنا فنسينا قريباً أضحى متطلعاً إلى سؤال الأهل عنه ، وتغافلنا عن صديق كنا في الماضي نلتف حوله . .

إننا يا صديقي نلهث دون أن نسأل أنفسنا ، هل وعينا دورنا في هذه الحياة ؟ ، هل أدينا حقوقاً افترضها الله علينا ؟ ، هل استأثرت منا القلوب بمثل تلك الرعاية التي نوليها لمظاهرنا أو أشكال بيوتنا ؟ ، هل استطعنا حقاً أن نضبط سلوكياتنا فلا نبني مستقبلنا على حساب هدم ذوات الآخرين ؟ ، هل كاشفنا نفوسنا بمثالبها وقاومنا جموحها وداوينا أنانيتها ؟

إننا يا صديقي إن لم نفعل ذلك فوا أسفاه على علم ندعيه ، ومعرفة نتباهى بها ، وسوف يكون هذا العلم وتلك المعرفة شاهدي حق علينا في دنيانا هذه يوم نرحل عنها ، وبين يدي الخالق الأعظم في آخرتنا عندما تنصب الموازين القسط وتوفى كل نفس بما كسبت .

